نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية: -

المفاهيم

والحقائق الغائبة

تأليف
أبي عبد الله
صادق بن عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أخي القارئ الكريم/ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أما بعد:

فإن بُعْدَ العباد عن الوحيين: الكتاب والسنة؛ سبب خللًا في فهم بعض المفاهيم الإسلامية على الوجه الصحيح؛ مما سبب مزيدًا من التخليط وفشو التخبط في فهم حقائق هذا الدين العظيم؛ فأخذ بعض الناس في التقديرات العشوائية لبعض المفاهيم الإسلامية، فهذا يفهمها حسب عاداته وتقاليده، والآخر حسب هواه وشهواته، وثالث حسب عقله وتصوراته الخاصة.

ومن هنا ظهر هذا الخلط الرهيب في بعض المفاهيم الإسلامية، ومشاركةً منا في الدعوة إلى الله عز وجل، ونصحًا للأمة، وبيانًا لحقيقة هذه المفاهيم، وفقًا للكتاب والسنة بما يكون إعذارًا عند الله عز وجل، ورحمةً للعباد، وإقامةً للحجة، وقطعًا للعذر، وبيانًا لوجه

الحق المشرق الوضاء، عزمنا على التكلم حول بعض المفاهيم لبعض المسائل الإسلامية المتداولة في الساحة الإسلامية، مما فهمها بعض الناس خطأً؛ للأسباب المتقدمة، أو لغيرها من الأسباب، والله وحده أسأل أن يبلغنا مرادنا، وأن يوفقنا إلى نيل رضاه عنا، وأن يجعل كلامنا نافعًا لكل من قرأه، حاويًا على الحق والصواب، والسداد والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه. فما أصبنا فمن الله وحده، وما أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان والله ورسوله براء من ذلك، والله المستعان وعليه التكلان.

❁❁❁

أولاً: حقيقة التواضع

التواضع خلق محمودٌ يحبه سائر العباد، بل ويحبه الله عز وجل قبل ذلك، وحث عليه الكتاب والسنة، وطبقه النبي ﷺ في أبهى وأحلى صوره وأشكاله، فضرب بالقدوة العملية أروع الأمثلة في التواضع.

فكان ﷺ يأكل الخل ويجيب الدعوة، ويركب الحمار، ويمازح الصغار، ويسلم عليهم، ويحمل الكلَّ، ويُكسب المعدوم، ويقري الضيف، حتى إن الجارية لتأخذ بيده، فلا يدعها حتى يقضي لها حاجتها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

والتواضع هو الخلق الذي لا يصلح للعبد سواه؛ إذ كل ما حولنا يدعونا إلى التواضع، فنحن ضعاف فقراء، تُقْلِقُنَا البَقَّة، وتُنْتِنُنا العَرْقَة، وتقتلنا الشَّرْقَة، ونحن في تعداد مخلوقات الله الكبيرة من أصغر مخلوقات الله تعالى.

فأين نحن من السماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والجبال الشم الراسيات؟ وأين نحن من الملائكة العظام أولي الأجنحة الذين منهم من يسد الأفق؟بل أين نحن من الكرسي الذي وسع السماوات والأرض؟ ناهيك عن العرش العظيم.

كل هذا وغيره كثير مما يخفى علينا، أو مما نعلمه؛ يدعونا إلى الوقوف مع أنفسنا وقفة صادقة؛ لنعلم أنه لا يصلح معنا سوى خُلُقُ التواضع، وأن الكِبْر لا يليق إلا بالكبير المتعال، اللهِ ربِّ العالمين.

ولهذا كان من نازع الله في كبريائه؛ عذبه الله تعالى، فعن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ﷺ قالا: قال رَسُول الله ﷺ: **«العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته»**[(١)].

ومن هنا نعلم، أن المستكبر من العباد منازع لله رب العالمين في صفة من صفاته تبارك، وتعالى، كما قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ الجاثية [٣٦_٣٧].

ولكن ما هو المفهوم الحقيقي لهذا التواضع، وفقًا للتصور الإسلامي الصحيح لهذا الخلق الرفيع؟

إن بعض العباد يظن أن حقيقة هذا التواضع هو في: التبسط مع الناس في العبارات، والتبسم في وجوههم، وإجابة دعواتهم، وعدم التعالي عليهم، والسعي في مصالحهم.

وهذه الأعمال وإن كانت من التواضع؛ إلا أنها ليست هي حقيقة

(١) أخرجه مسلم.

التواضع؛ فإن الكتاب والسنة قد دلا على أن التواضع في حقيقته هو أمر وراء ذلك كله.

حيث بَيَّنَ الكتاب، والسنة، أن التواضع ينقسم إلى قسمين: تواضع ظاهري، وتواضع باطني، وأن العبد لا يمكن أن يوصف بالتواضع إلا إذا حقق كُلًا من النوعين، وأن العبد مهما أظهر التواضع في ظاهره إن لم يكن متواضعًا في باطنه؛ فإن هذا التواضع لن ينفعه عند الله عز وجل، ولا يجوز مدح، ولا وصف صاحبه بالتواضع بحال من الأحوال.

وعليه فإن المعول الأكبر في التواضع الحقيقي هو تواضع الباطن، وهذا إنما يكون بأمور منها:

حب الله عز وجل، والعمل على مرضاته، ومتابعة الرسول ﷺ مظهرًا ومخبرًا، واتباع الحق الذي جاء به من عند الله عز وجل، انقيادًا وذلًا وإذعانًا لله عز وجل، وحرصًا على إظهار شعائر الإسلام: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبهذا وصف الله عز وجل عباده المتواضعين له حقيقة التواضع بقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ الحج [٤١].

وهم الذين أضافهم الله تعالى إلى نفسه إضافة التشريف والإكرام بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

قَوَامًا﴾ [الفرقان٦٣-٦٧].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر!**» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة! قال: «**إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»(١).

فانظر كيف بَيَّنَ النبي ﷺ حقيقة الكبر، مما يدل على حقيقة التواضع، ومن هنا نعلم أن حقيقة التواضع: هو الجمع بين تواضع الظاهر، وتواضع الباطن، فإن الإذعان للحق، والانقياد له، وحبه، والمسارعة إليه هو تواضع الباطن، وحسن معاشرة المسلمين، وخفض الجناح لهم، وعدم التعالي عليهم هو تواضع الظاهر.

ولكن لما حصل هذا الخلط في فهم التواضع عند بعض المسلمين؛ بدأنا نرى، أو نسمع من يمدح المرابين بالتواضع، ومن ينسب تارك الصلاة للتواضع، وكذلك المجاهر بالمعاصي والمنكرات: من حلق اللحى وإسبال الثياب، وشرب الدخان، وغير ذلك من المحرمات، وما ذلك إلا لأنه رأى منه موقفًا في ظاهره يدل على تواضع الظاهر، كأن يكون ذا منزلة ومكانة في المجتمع، فيمر عليه فيلقي عليه السلام، أو يسعى في قضاء حاجته، أو يجيب دعوته، وإن كانت على مستوى متواضع بسيط؛ فيبادر إلى نسبته إلى التواضع، مع كونه مقيمًا على المعاصي والمنكرات، مجاهرًا مستعلنًا بها،بل لقد سمعنا من يمدح الطواغيت بالتواضع؛ مع أنهم قد بلغوا من الكبر منتهاه، فالله المستعان، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) أخرجه مسلم.

وعليه فلا يجوز بحال نسبة العبد إلى التواضع، إلا إذا كان ممتثلًا لكلا شقيه الظاهر والباطن، فلا تراه مجاهرًا بالمعاصي، والمنكرات، بل مسارعًا في الخيرات.

هذا هو المتواضع بحق الذي يجدر نسبته إلى التواضع، وهذا هو التواضع الذي ينفع العبد عند ربه عندما يلقاه في يوم قال الله عنه: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. الشعراء [٨٨ ـ ٨٩] والله أعلم.

❁❁❁

ثانيًا: الحياء

الحياء من الأخلاق الجميلة، والخصال الحسنة الرفيعة، وهو لا يأتي إلا بالخير، ولكن بعض العباد يفهم هذا الحياء خطأً؛ فيضعه في غير موضعه، فإن المتأمل لواقع بعض الناس، يرى خلطًا واضحًا بين الخجل والحياء.

ذلك أن الحياء يبعث على مكارم الأخلاق، ويدل عليها، ويدعو إليها، فمتى كان الحياء مانعًا من ذلك؛ كان حياءً مذمومًا، وأولى أن يسمى خجلًا، لا حياءً.

وربما خلط الناس بين الحياء المحمود، والمداهنة، والعياذ بالله، فمن ذلك أنك ترى بعض الناس جريئًا في كثير من أمور الحياة الدنيا، فإذا دعوته إلى طلب العلم مثلًا، أو حضور الندوات، والمحاضرات النافعة؛ اعتذر مباشرة بالحياء.

وإذا وجدته يؤدي عبادة من العبادات على غير وجهها الشرعي، فقلت له: لماذا لا تسأل عن أمور دينك؛ لتسير إلى الله على بصيرة؟ بادرك معتذرًا عن ذلك بالحياء.

بل إنك قد ترى أو تسمع من يمدح بعض النساء بالحياء مع أنهن متطاولات على أزواجهن ناشزات، جريئات على العناد والعصيان ورفع الصوت والشقاق، وأخريات كاسيات عاريات مائلات مميلات، وبعضهن تراهن جريئات على الرجال مخالطةً ومحادثةً وخلوةً عياذًا بالله من الفساد والإفساد.

في حين أن النبي ﷺ كان يوصف بأنه أشد حياءً من العذراء في خدرها[١].

فكيف بالعذراء التي خرجت من خدرها كاسية عارية، متبرجة فاتنة مفتونة؟! كيف يتسنى لنا وصفها بالحياء والحالة هذه؟!

وقد قيل قديمًا:

إذا قلَّ ماء الوجه قَلَّ حياؤُه ولا خير في وجهٍ إذا قلَّ ماؤُه

ولكن هذا من التخليط والتخبط الذي وقع عند البعض في مفهوم الحياء.

وأخطر من ذلك، أنك ترى الواحد منهم يجالس أصحاب المنكرات، ولا ينكر عليهم، ومنهم من لا يجالسهم، ولكنه يرى المنكرات على أقاربه، أو أصحابه، أو هنا أو هناك، ومع ذلك لا ينكرها عليهم، فإذا سألته عن ذلك وخوفته بالله عز وجل، قال لك: ما منعني من الإنكار عليهم إلا الحياء.

ومن هنا يظهر واضحًا جليًّا أن ثمة خللًا ما في فهم حقيقة الحياء؛ لأن النبي عليه الصلاة، والسلام، قال: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[٢]، وفي رواية لمسلم: «**الحياء خير كله**» أو قال: «**الحياء كله خير**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى من**

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها».
(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»[١].

وعليه فإن كل خيرٍ فقد دل الحياء عليه، وكل شرٍّ فإن الحياء يمنع منه[٢]، فمن وجد من نفسه جرأةً على المحرمات، وترددًا عن الطاعات، فلا يظنن أن ذلك من الحياء في شيء، بل ما هو إلا اتباع الهوى المردي المشين.

فعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت»**[٣]، وليس من الحياء في شيء رؤية المنكرات، وتركها دون إنكار، مع القدرة على إنكارها، بحجة الحياء، بل هذا من الخجل، وإن سُمِّيَ حياءً، فهو من الحياء المذموم، الذي يورث سخطَ الرَّبِّ تبارك وتعالى، ويُكْسِبُ قسوة القلب، وشتات الأمر، وذهاب البركة من العمر، والعلم، والعمل.

فالحياء المحمود إذن:

هو الذي يبعث على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، ويحجب صاحبه، ويمنعه عن كل خلق ذميم، وعمل مشين. فأكثر الناس حياءً هم الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، المسارعون في الطاعات، والقربات بين يدي رب البريات سبحانه وتعالى. والله أعلم.

❁❁❁

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
(٢) لمزيد من التعرف على حقيقة الحياء وأهميته راجع كتابي «الحياء».
(٣) أخرجه البُخَارِيُّ.

ثالثًا: الثقة بالنفس أو الآخرين

الثقة كلمة تحتمل معاني كثيرة، والعباد مذاهبهم شتى في استعمالها، وتَرِدُ في المفهوم الإسلامي بمعنى حسن الظن بالله عز وجل، والتوكل، والاعتماد عليه عز وجل، ويطلقها بعض الناس، ويريد بها تمكنه من العمل، وقدرته على أدائه على الوجه الأمثل.

ومنهم من يطلقها، ويريد بها الطمأنينة والراحة، لما يقوم به بعض الناس، وأنه هو، وما يقوم به فوق مستوى الشبهات، وهذا هو الذي نريد الكلام عنه الآن في هذه العجالة، وهذا المعنى كثيرًا ما يرد على ألسنة المربين والمربيات، ولا سيما النساء.

فترى بعض، المربين أوالمربيات، يسمح لمن تحت يديه ـ من بنين أو بنات ـ بالذهاب إلى أماكن المنكرات، أو يسمح لهم بمشاهدتها، أو بالسفر إلى بلاد يكثر فيها الكفر البواح والفجور والسفاح.

والبعض يسمح لزوجته بالخروج إلى الأسواق، أو إلى أي مكان شاءت، ولو لم يعلم هو إلى أين هي ذاهبة، فلتخرج متى شاءت، وكيف شاءت، وبأي لباس أو هيئة شاءت، ومع من شاءت سائقًا كان، أو خادمًا، أو غيرهما.

وآخر يسمح لابنته، أو زوجته بالسفر إلى هنا، أو هناك بدون محرم، إما بدعوى الدراسة، أو الزيارة، أو غير ذلك من الأعذار غير المشروعة.

وآخر يسمح لابنته بالدراسة في المدارس، أو الجامعات المختلطة

هذه التي جَرَّت علينا الويلات.

وأخرى تطالب بالسماح لها بالبقاء خارج المنزل لفترات طويلة، ولو إلى أوقات متأخرةٍ من الليل.

وآخر يسمح لنسائه بالخلوة بالرجال الأجانب عنها، كل هذا، وغيره كثير يقع، ويحدث بدعوى الثقة بها، وبأخلاقها وحسن تربيتها.

والمتأمل في نصوص الكتاب والسنة يعلم يقينًا أن هذا المفهوم للثقة مفهومٌ خاطئٌ.

وإننا، وإن كنا نثق بنسائنا، ولا شك في ذلك ألبتة، إلا أننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نثق بأعدائنا من شياطين الجن والإنس، الذين يريدون أن يغتالوا الفضيلة، وينشروا الرذيلة فما برحوا يكيدون للمرأة؛ ليخرجوها من حيائها، وينزعوا عنها حجابها، ويكسروا رتاج عفافها.

وما هذا الذي يجري في بلاد الغرب، وما شابهها من بلاد السفور والفجور، مما نراه من الفساد العريض، واستخدام المرأة كوسيلة للإغراء والفتنة، بل والتكسب بها عبر عرض المفاتن من الأجساد العارية، أو شبه العارية، كل هذا، وغيره كثير، ما هو إلا أكبر شاهدٍ على ضرر هذا المفهوم الخاطئ للثقة الذي استشرى بين العباد، وامتد خطره، واستطار شرره؛ حتى وصل إلى بلاد المسلمين، والعياذ بالله.

نعم وصل إلينا على أيدي أعداء المرأة من العلمانيين والمنافقين وأذناب اليهود، والنصارى هنا أو هناك.

إننا نعلم يقينا أن وراء هذا الزخم الإعلامي ـ تحت دعوى وغطاء وشعار تحرير المرأة، ورد حقوقها، ومساواتها بالرجال ـ وراءه من

وراءه من دعاة النار الذين وصفهم النبي ﷺ كما في حديث حذيفة ﷺ الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الخير، والشر حيث قال: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير. وكنت أسأله عن الشر. مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله ! إنا كنا في جاهلية وشر. فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي. تعرف منهم وتنكر، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: نعم قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: يا رسول الله ! فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة، ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك**»[1].

وعليه فإن هذا المفهوم للثقة، إنما روج له هؤلاء، وأضرابهم، ولقنوه لأتباعهم، وقذفوه على ألسنة كثيرٍ من الناس؛ فزين لهم الشيطان سوء أعمالهم والعياذ بالله من ذلك.

وانظر أخي بارك الله فيك إلى نصوص الوحيين كيف أنها لم تُرْجِع قضية المرأة إلى الثقة بها وبأخلاقها وأسلوب حياتها وتربيتها، وإنما إلى صيانتها وعفافها؛ لأنها فتنةٌ لها ولغيرها؛ ولأن ذئاب البشر يتربصون بها لينهشوها ويفتكوا بها؛ ولأنها ناقصة عقل ودين، فقد تكون صالحةً في نفسها إلا أن أعداءها لن يدعوها وصلاحها، بل سيسعون جاهدين

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

في إفسادها.

والواقع خير شاهد على ذلك، ويكفينا كلام العليم الخبير الخالق لعباده من العدم، والأعلم بما يصلحهم، وما يفسدهم، حيث أخبر تبارك وتعالى بصيغة الأمر العامة لجميع النساء: أن خيرَ أمرٍ للمرأة، هو القرار في بيتها.

ولم يستثن الشارع الحكيم أحدًا من ذلك فلم يقل: **(إلا من وثقتم بها)** بل أتى الأمر عامًّا شاملًا لجميع النساء، فقال عز من قائل عليمًا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ الأحزاب [٣٣].

نعم هذا هو أمر الذي قال عن نفسه تبارك وتعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ الملك [١٤].

فجاء الأمر عامًّا بالقرار في البيوت، وأنه لا شيء أصلح لهن من ذلك، وأن في خروجها مفسدةً لها ولغيرها.

ثم بَيَّنَ تبارك، وتعالى؛ أنه في حال خروجها لما لابد منه كالمساجد ونحوها، أن عليها أن تكون محتجبةً محتشمةً متقيةً لله عز وجل، فلا خضوع بالقول ولا تكسر في المشية، مع أن بيوتهن خيرٌ لهن، وبهذا جاء الخبر عن الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه أنصح الأمة للأمة، وأحرصها على جلب ما ينفعها، ودفع ما فيه عَنَتُها وغِوَايَتُها؛ فعن عَبْدِ الله ابن مسعود ﷺ عنِ النبيّ ﷺ قالَ: «**المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**».قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ غرِيبٌ. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه»، والطبراني بزيادة «**وأنها أقرب ما تكون إلى الله وهي في قعر بيتها**».

وبهذا نعلم يقينًا أن أمرَ المرأةِ بالقرار في البيوت، ليس لكوننا لا نثق

بها، بل لعدم ثقتنا بأعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، ليفسدوها؛ ولأن ثقتنا بكلام ربنا تبارك وتعالى العليم الخبير، وكلام رسوله ﷺ الرءوف الرحيم، فوق كل ثقةٍ، وأكبر في نفوسنا من كل شيءٍ.

ولهذا التزم هذا الأمر أطهر النساء، وأزكاهن اللواتي هن فوق كل شبهة، ولهن الحظ الأعلى من كل ثقة، نساء النبي ﷺ ورضي الله عنهن أجمعين؛ فلزمن البيوت، والقرار فيها؛ امتثالًا لأمر العليم الخبير بأحوال عباده، وما يصلحهم، وما يفسدهم القائل في كتابه العزيز: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٧ – ٢٨].

واقرأ أخي الكريم، وأنت أختي الكريمة ما قاله الله ـ تبارك وتعالى ـ لنساء النبي ﷺ ولا شك أن النساء تبعٌ لهن في ذلك: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ الله وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ إِنَّ الله كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۞ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالمسْلِمَاتِ وَالمؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالمتَصَدِّقِينَ وَالمتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ الله لَهُـم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـرًا عَظِـيمًا﴾ الأحزاب [٣٢-٣٥].

فتأمل عبد الله قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، نعم هذه هي العلة: أن المرأة فتنة، وعورة؛ وأذكر مرة أخرى أنه ـ تبارك وتعالى ـ لم يرجع القضية للثقة بالمرأة، وأخلاقها، وتربيتها، وأسلوب حياتها، بل عمد إلى سد الذرائع المفضية إلى الفساد والإفساد، بكل صوره وأشكاله، وجاء الأمر العام الملزم لجميع النساء بالتزام القرار في البيوت، وعدم التبرج والسفور، ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً، هِيَ أَضَرّ، عَلَىَ الرّجَالِ، مِنَ النّسَاءِ**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنّ الدّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ. وَإِنّ الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.فَاتّقُوا الدّنْيَا، وَاتّقُوا النّسَاءَ. فَإِنّ أَوّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النّسَاءِ**»[2]. فهل بعد هذا يصح أن نخرج المرأة على ما تقدم ذكره بحجة الثقة فيها؟!

❁❁❁

(١) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

رابعًا: الحرية

الحرية مطلبٌ يتطلع إليه كل العباد، وتستشرفه النفوس، وتشرئب إليه الأعناق، ولهذا نسمع الجميع هنا أوهناك ينادون به، ويطالبون بتحقيقه، ولكن المتأمل لأقوال الناس حول هذه الحرية؛ يجد أن هناك تباينًا شاسعًا في فهمها، وفهم أبعادها، وحقائقها.

فمنهم من يطالب بحرية الأديان عياذًا بالله من ذلك؛ ليعود الناس إلى صورة الإشراك الصراح، المبني على تعدد الآلهة، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر [٢٩]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله وَلَوْلَا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الشورى [٢١].ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ آل عمران [٨٥].

ومنهم من يطالب بحرية التفكير، وحرية التصرفات والتوجهات، وآخرون منهم يطالبون برفع ما يسمونه القيود الدينية، والمساواة بين العباد كلهم،حسب ما يسمونه بالمواطنة، أو على أنهم كلهم أبناء آدم؛ ليصبح العباد عبادًا لأهوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان [٤٣-٤٤].

إلى غير ذلك من مفاهيم بعض العباد، والخلط الرهيب الحادث في هذه الكلمة، وإننا بإذن الله ـ تعالى ـ بصدد بيان المعنى الجلي للحرية الحقيقية، وبيان أبعادها وفقًا للكتاب والسنة؛ لأن الدين الإسلامي هو دين الحرية الحَقَّةِ، وهو الدين الذي جاء؛ ليحرر الإنسان حقيقة من كل القيود، والتبعيات للعباد أمثاله؛ ليكونوا جميعًا عبادًا لله الواحد القهار، قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

فالحر حقًّا هو الذي لا يقبل من عبد مثله: أن يشرع له، ولا أن يخطط له منهج حياته، ولا يرضى بحال أن يُعِيرَ عقله للآخرين؛ ليفكروا له، ويخططوا له.

الحر حقًّا هو الذي لا يرتضي أن يكون تبعًا للعباد أمثاله، ينعق بما ينعقون به، ويجاريهم فيما يتجارون فيه.

هذا هو المفهوم الحقيقي للحرية، وهذا هو الإنسان الحر حقًّا، ولهذا قال ربعي بن عامر ﷺ لكسرى أنو شروان لـمَّا سأله لماذا جئتم؟ قال له ربعي ﷺ: «جئنا؛ لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة».

وعليه فإن العبد إنما ينال أسمى مراتب الحرية، وأعلى درجاتها، يوم أن يتحرر من رقه للعباد أمثاله؛ ليكون عبدًا حقيقيًّا لرب العباد، يأتمر بأمره لا بأمر العباد أمثاله، يتصرف، ويفكر، ويحيا كما يحب الله ويرضى.

وبهذا تتحقق عزة المسلم الحقة، فمن أراد العزة والكرامة، والحرية الحقة؛ فليطلبها عند الله ـ عز وجل ـ بالمسارعة والمسابقة في مراضيه

تبارك وتعالى، ولهذا قال، تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعًا﴾ النساء[١٣٩]. وقال جل وعلا:﴿وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المنافقون [٨].

ومن هنا نعلم يقينًا أن فهم كثير من الناس للحرية، هو مفهومٌ خاطئ، فالإنسان خلقه الله عبدًا، ولابد له أن يعبد، فهو لم يَـخْلُق نفسه، ولا يصلح له أن يعيش حيوانًا بهيميًّا، فمن أراد الحرية، فهي في المنهج الشرعي ولا شيء غير ذلك.

وعليه فلا يصح لطالب الحرية أن يقول إذا أُمِرَ بطاعة الله ورسوله: أنا حر أو هذه حرية شخصية؛ لأن الحرية الحقيقية كما تقدم هي في اتباع الكتاب والسنة، والتحرر من رق الهوى، والشهوات، والعبودية للعباد، ولن تبلغ أيها الإنسان أن تكون حرًّا، حتى تتحرر من كل ما سوى الله، عز وجل؛ لتكون عابدًا له تبارك وتعالى وحده لا شريك له. هذا هو المفهوم الصحيح للحرية وما عدا ذلك فخطأ محض.

وما أحسن ما قال الشاعر:

ومـــا زادني شرفًـــا وتـيـهـــًا وكدت بأخمصـي أطـأ الثريـــا
دخولي تحت قولك يا عـبادي وأن صـيرت أحمـــــد لي نـبـيًّـا

وإن من أخطر الدعوات التي ينادي إليها دعاة الحرية الجاهلية اليوم المناداة بالديمقراطية، والتي حقيقتها أن يكون الحكم للشعب، لا لله ورسوله على فهم السلف الصالح فعند هؤلاء ما أقره الشعب إما بالإجماع أو الغالبية فهو المحكم، فعند هؤلاء الضالين المنحرفين إرادة الشعوب فوق كل شيء، حتى لو طالب الشعب بحكم الطاغوت،

فليكن كذلك فهذه حرية الشعوب التي ينادون بها اليوم، وما هي إلا وجه آخر للحكم بالطاغوت وتمرير للأهواء الضالة المضلة، والسعي الحثيث في إرضاء الشيطان وأعوانه من الجن والإنس.

وإنه، وللأسف الشديد كم من المسلمين افتتن اليوم بهذا الشعار البراق الملمع! والذي كرست له جهود، وفرغت له أوقات، وأُهدرت في سبيله الأموال الطائلة من المفسدين في الأرض، وكم نفخ الإعلام المشوه الخرب في هذا البوق مناديًا بتحرير الشعوب! وإنما المقصود الأعظم التحرر من سلطان الله في أرض الله وعبـــاد الله؛ حتى يعود حكم الطاغوت مسيطرًا على العباد، ولكن هيهات هيهات، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ الله الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ الأنفال [٣٦ ـ ٣٧].

فكل من سعى في ركاب دعاة الديمقراطية بمعناها هذا، فإنه لا يعدو أن يكون جاريًا في ركاب المفسدين في الأرض الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَالله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون [١ ـ ٤] ولهذا قال، تعالى:﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ۞ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۞ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۞ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۞ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۞ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤١ - ١٤٦]

ولهذا قال النبي ﷺ محذرًا من الفتنة بأمثال هؤلاء كما في «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عنهما يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير. وكنت أسأله عن الشر. مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر. فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم. وفيه دخن**». قلت: وما دخنه؟ قال «**قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي. تعرف منهم وتنكر**». فقلت:

هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم. دعاة على أبواب جهنم. من أجابهم إليها قذفوه فيها**». فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال «**نعم. قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**» قلت: يا رسول الله! فما ترى إن أدركني ذلك! قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو أن تعض على أصل شجرة. حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك**». وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون. يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم. فإياكم وإياهم. لا يضلونكم، ولا يفتنونكم**». أخرجه مسلم.

فالحذر الحذر. عباد الله! فإن الأمر جد خطير، والفتنة بهؤلاء تذهب الدين وما أكثر الهالكين في آخر الزمان من المفتونين بدعاة على أبواب جهنم! من أحابهم إليها؛ قذفوه فيها نسأل الله العافية والسلامة آمين.

كما أن هناك من اغتر بما يعرف اليوم بالحرية الشخصية فكل واحد حر في تصرفاته وتعاملاته وهذا فرع عما تقدم تقريره. فكم هدمت من الشرائع وانتشرت من الرذائل والمنكرات تحت دعوى وغطاء الحرية الشخصية والحرية الفكرية مما يعرف اليوم بـ(حرية التعبير).

ويكفي للرد على هؤلاء بيان قول الله تعالى: ﴿

الذاريات [٥٦] وقوله تعالى:

يس [٦٠-٦٢]، وقوله تعالى:

الإسراء [٣٦].

ونحو ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودخول الناس في السلم كافة لتحقيق العبودية العامة التامة لله رب العالمين. والله أعلم.

❁❁❁

خامسًا: الضغط يولد الانفجار

والله غفور رحيم وهو الهادي إلى سواء السبيل

إن المتأمل في أحوال بعض المُرَبِّين والمربيات مع أولادهم؛ يرى أنهم حريصون كل الحرص على أمور دنياهم، بل ويعملون حثيثًا في تهيئة الجو المناسب لأبنائهم؛ لإتقان أعمالهم الدنيوية من المدارس، والجامعات والوظائف، وغير ذلك من الأمور، في حين أنك ترى تفريطًا واضحًا جليًّا فيما يتعلق بأمور الدار الآخرة، من حسن المعتقد، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من شرائع الإسلام، ومبانيه العظام، وفي نفس الوقت ترى من الأبناء تطاولًا في المعاصي والمنكرات، القولية منها والفعلية، مع عدم مبالاة منقطعة النظير من أبويهم، ومن يقومون عليهم ممن يُسَمَوْنَ بالمربين والمربيات.

فإذا قام الدعاة، والمخلصون، والصالحون، بتوجيه نصيحةٍ ملؤها الرحمة، والإشفاق على هذه الأسرة، نصيحةٍ غاليةٍ موجهة إلى القائمين على الأمر من المربين والمربيات، ليأخذوا على أيدي أبنائهم؛ ليكونوا من الناجين يوم القيامة كما قال، تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۞

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۞وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ﴾ الطور [٢١ ـ ٢٨].

وليقوموا عليهم بحق الله فيهم الذي أوجبه الله ـ تعالى ـ عليهم كما قال النبي ﷺ: «**ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته. فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته. والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم.والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**»(١).

وليعملوا على تنمية، وصيانة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لتكون النجاة بإذن الله ـ تعالى ـ كما قال النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**» **ثم يقول أبو هريرة** رضي الله عنه ﴿فِطْرَةَ الله الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية الروم [٣٠](٢)

أقول: إذا قام الدعاة، والمخلصون، والصالحون بذلك فوجئوا بجواب عجيب غريب، يدل دلالةً واضحةً على عدم فهم هؤلاء المربين والمربيات لحقيقة الدور المطلوب منهم للقيام بتربية هؤلاء الناشئة ألا وهو قولهم: إننا إن تابعناهم في أمور دينهم، وقَوَّمْنَاهُم على

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ لمسلم.
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري.

السُّنَّةِ في كل صغير وكبير من حياتهم، وأمرناهم بالاستمساك بالصراط المستقيم؛ سيكون ذلك سببًا لبغضهم للدين، وبعدهم عنه، وانحرافهم عن الصراط المستقيم؛ فلابد إذن من أخذهم بالقناعة، حتى لا نُكَرِّهَهُمْ في الدين، وحتى لا يكونوا ملفوظين في المجتمع، غرباء بين الناس، ليس لديهم اجتماعيات، ولا مجاملات، وإن هذا سيؤثر على أرزاقهم، وأمورهم الحياتية، وما يتعلق بذلك من التكسب والأعمال، وحتى لا يكونوا دراويش فكل شيء بالهداوة؛ لأن الضغط يولد الانفجار، ثم إن الله ـ تعالى ـ غفور رحيم، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

فأقول: عجبًا لهذه الأقوال الغريبة عن الإسلام، ولكن إذا عُرِفَ السبب ذهب العجب، فإذا علمنا أن هذه الأقوال إنما تأتي على ألسنة أقوام مخدوعين، لم يتعرفوا على حقائق الإسلام، ومبانيه العظام، أو أن هذا القائل قد اغتر بمن تقدم ذكرهم من الدعاة على أبواب جهنم أعاذنا الله وإياكم منهم.

إلا أن هذه المقولة ليست بجديدة، ولا ببدع من القول، فقد قالها من قبلهم أهل القرون السابقة، ولكل قوم وارث، ولهذا ذكرهم الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز؛ ليحذر العباد من أمثال هؤلاء فقال، تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لهمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص [٥٧]. نعم، هكذا ظنوا أن اتباع الهدى يعني: الهلاك، والبوار، وذهاب الملك، وسوء الحال.

إن مثل هذه الأقوال تعني صراحة – قصد قائلها ذلك أو لم يقصد،

شعر أو لم يشعر- أن العبد إذا استقام على الصراط المستقيم واقتفى أثر سيد المرسلين؛ ليكون من عباد الله المتقين؛ أن هذا سيئول به إلى أن يكون: ضحل الشخصية، مشتت الحال، يعاني من انفصام في شخصيته، ويعيش كبتًا داخليًّا، وتنازعًا واضحًا في نفسيته، وأنه سيكون لديه شعور بالنقص والدونية، وأن ذلك سيقوده إلى أن يعيش محطمًا ملفوظًا وحيدًا بائسًا طريدًا؛ وبالتالي فإنه سيعيش بنفسيةٍ محطمةٍ، ونظرة سوداوية متشائمة من المستقبل تعاني من الكبت، والقهر، وبغض المجتمع، وبالتالي فإنه سيعاني من الفقر والفاقة، والذل والحرمان؛ لأنه لن يستطيع التعامل مع الواقع، وسيضطر إلى العزلة، وترك الأعمال، وأن ذلك سيؤثر سلبًا على رزقه وحياته.

سبحان الله! سبحان الله! هل يمكن أن يتصور مسلم أن هذه الأفكار العدوانية الظالمة تدور بخلد بعض من ينتسب لهذا الدين؟!

هل من الممكن أن يصل بعض أفراد المسلمين إلى هذا المستوى الهزيل من التفكير، وتقدير الأمور؟!

هل من الممكن أن نتخيل أن هذا هو فهم بعض المسلمين للإسلام والدين والقرآن العظيم؟!

ولكن وللأسف الشديد أن هذا واقع يعيشه بعض المسلمين اليوم هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل آمين.

وحقيقة! لا أدري ما أقول؟ فإن الذي يقرأ آيات القرآن العظيم يجدها متكاثرةً جدًّا للرد على هذه الشبه الشيطانية الباطلة، وهذه الأقوال المريبة البائسة التي لا نزال نسمعها من هنا أو هناك.

لقد جاءت الآيات الصريحة المتضافرة، والأحاديث المتظاهرة؛

لتدل دلالة واضحة على أن كل من استمسك بهذا الصراط المستقيم، واتبع هدي سيد المرسلين؛ فإن له الفلاح والرشد، والنجاة والأمن في الدنيا والآخرة، وأنه لا خوف عليه ولا حزن، وأن له من الرزق الحسن ما وعد الله به عباده المتقين، وأن له التمكين في الأرض، ورضا الرب ـ تبارك وتعالى ـ، وسأسرد سردًا بعض هذه الآيات بدون تعليق كثيرٍ عليها؛ لوضوحها، ودلالتها على المطلوب، ولكثرة هذه الآيات؛ فسأذكر منها ما يتيسر:

يقول ـ تعالى ـ مبينًا حسن مآل ورزق المتقين، وعظيم حماية الله ـ تعالى ـ للمتوكلين: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} .[الطلاق : ٢ ، ٣]

وهذا وعد إلهي بالحياة الطيبة لمن آمن وعمل صالحًا من الذكور، والإناث قال، تعالى:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل [٩٧].

وهذه آية أخرى تبين أن المسارعة في طاعة الله، ورسوله فيها الحياة الحقيقية، والأنس التام، وانشراح الصدر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الأنفال [٢٤].

وهذه آية أخرى تبين أن الإيمان، والتقوى من أعظم الأسباب التي تنجي العبد من الحيرة، وشتات الأمر عند اختلاط الحابل بالنابل، ولبس الحق بالباطل قال، تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل

لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ الأنفال [٢٩].

وبين الله تعالى في هذه الآية أن البعيد عن الهداية، والصراط المستقيم ميتٌ، وإن كان حيًّا بين الناس، وأن النور، والحياة الحقيقيين هو في اتباع الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة قال، تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام [١٢٢].

وهذا وعد إلهي آخر بعدم حصول الضلال ولا الشقاء لكل من اتبع الهدى وترك الهوى قال، تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه [١٢٣]. وقال، تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة [٣٨].

واسمع هذه البشرى، وانظر هي لمن؟قال، تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة [٢٥].

واسمع لمن يكون الأمن والاهتداء؟ قال، تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾الأنعام [٨٢].

وانظر على من تتنزل الملائكة بالبشرى، والأمان، ودخول الجنان، قال، تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۞ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت [٣٠-٣٣].

وهذا وعد إلهي آخر بحسن الرزق لمن استقام على الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ الجن[١٥].

وليست هذه الوعود للأفراد فقط، بل هي عامة لجميع المجتمعات، أنهم إن أقاموا شرع الله في دنيا الواقع، وعاشوا الإسلام بكل كيانهم، وتنفسوا الإيمان من سويداء قلوبهم، وانشرحت صدورهم به قولًا، وعملًا، وحكمًا، وشرعًا؛ أن الله سيعطيهم ما وعد به في قوله، تعالى: {ينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا وَعَدَ اللهُ الَّذِ اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ)كُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِ [٥٥-٥٦] النور {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

واسمع إلى ما قاله الأبوان المشفقان على ولديهما، حيث أمراه مل الصالح، وحَذَّرَاه من الكفر والعصيان، وذكَّرَاه بدخولبالإيمان، والع يدّلاو(:الجنان، وأن وعد الله حاصل لا محالة لمن آمن وعمل صالحًا قال تعالى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ [١٧]اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) الأحقاف.

وإذا أردت أن تسمع، وتقرأ العجب، فلا عجب أعجب من أن تجد كافرًا خبيثًا

،يعـــرف الحقيقـــة الكـــبرى، فـــي حيـــن أنـــه يجهلهـــا بعـــض المســـلمين .لـــه العلـــي العظيـــمفـــلا حـــول ولا قـــوة إلا بـــال

،إن الفـــــلاح :فهذا هرقل الروم يقول لأتباعه معلنًا لهم، وبكل صراحة والرشـــد، وثبـــات الملـــك، واســـتتباب الأمـــر؛ إنمـــا يكـــون فـــي مبايعـــة علـــى الطاعـــة، والاتبـــاع فـــي كـــل صـــغير وكبـــير مـــن شـــئون) النـــبي .الحيـــاة

فعن ابن عباس ﷺ: في قصة الكتاب الذي بعثه النبي ﷺمع دحية الكلبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم... الحديث وفيه قال هرقل لأتباعه: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ﷺ؟[1]

وهاهو النبي ﷺ يُبَيِّنُ أن من السبعة الذين يظلهم الله ـ تعالى ـ تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: شابًّا نشأ في طاعة الله، أي تربى على الدين والإيمان منذ لحظات حياته الأولى، حتى توفاه الله، وهو على ذلك، وذكر رجلًا آخر همه الأكبر إقام الصلاة، وطاعة الله رب العالمين، فقلبه معلق بالمساجد حبًّا وشوقًا، وقولًا وعملًا.

فعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله ـ تعالى ـ في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه،**

(١) أخرجه البخاري.

ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[1].

فكيف يقول قائل بعد هذه الآيات، والأحاديث الصريحة: إن الولد إذا استقام على الطريقة منذ نعومة أظفاره؛ أن هذا سيضره، وأن المجتمعات إن استمسكت بالشرع، وحَكَّمَتْهُ في كل صغيرٍ وكبيرٍ؛ أن هذا سيكون سببًا للمشاكل، والويلات؟! كلا، والله الذي لا إله غيره لا يقول هذا بعد هذا البيان إلا منافق معلوم النفاق، نسأل الله العافية والسلامة.

❁❁❁

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

سادسًا: الرأي الآخر

إن الآراء، ووجهات النظر أمرٌ قد وقع فيه إفراط، وتفريط بين العباد، فمن الناس من يوجب احترام ذلك مطلقًا؛ فَيُلْزِمُ الناس باحترام وجهات النَّظر أيًّا كانت، وممن جاءت، ويرى أنه يجب أن يكون لها حظٌّ من القبول، والتلقي،وعدم الإنكار على أصحابها، مهما كانت وجهة النظر، ومهما كانت نوعية ذلك الرأي.وهم بهذا الاعتبار يَرَوْنَ أنهم يقدسون العقلية البشرية التي بها تميز بنو الإنسان عن سائر الحيوان.

بينما نجد على الطرف الآخر من لا يقيم لوجهات النظر، ولا للرأي الآخر أي اعتبار، بل يتعامل معه على أن وجوده كعدمه، بل هو يذم جميع الآراء مهما كانت، وممن جاءت.

والمتأمل للمقاييس الإسلامية؛يجد أنها جاءت وسطًا بين طرفين، وعدلًا بين ظلمين، فلا إفراط ولا تفريط، فلقد وردت نصوص، وآثار عن السلف تذم الرأي، وتحذر من أصحابه.

كقول سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ)[1] قال الحافظ في الفتح: وقد جاء عن عمر نحو قول سهل ولفظه «اتقوا الرأي في دينكم» أخرجه البيهقي في المدخل هكذا مختصرًا، وقال أيضًا: وقوله:«اتهموا رأيكم على دينكم» أي: لا تعملوا في أمر الدين بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين، وهو كنحو قول علي

(١) متفق عليه.

فيما أخرجه أبو داود بسند حسن «لو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلاه».اهـ.

وبنحوه عن أبي بكر الصديق ـ ﷺ ـ حيث قال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا تكلمت في آية من كتاب الله بغير علم»[1].

كما جاءت آثار أخرى تدل على الحث على الرأي، والقياس فمنها ما أخرجه البخاري عن أبي جحيفة ـ ﷺ ـ قال: قلت لعلي ﷺ : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر».

فهذا الفهم نوع من أنواع الرأي، ومنها ما جاء في «الصحيحين» من طريق أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، فأصاب؛ فله أجران، وإذا حكم وأخطأ؛ فله أجر**»، ومنها ما جاء في قصة بروع بنت واشق الذي أخرجه أهل السنن وأحمد، من حديث ابن مسعود ﷺ، حيث قال ابن مسعود في بعض طرق الخبر:«أقول فيها برأيي فإن يك خطأ فمني ومن الشيطان وإن يك صوابا فمن الله».

قال الزيلعي في «نصب الراية»: وفي كتاب عمر إلى أبي موسى، أخرجه الدارقطني، ثم البيهقي في «سننيهما»، وفيه: «الفهم فيما يختلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأشباه والأمثال،

---

(١) أخرجه ابن جرير بسند منقطع، وله شاهد من حديث عائشة. أخرجه أيضًا ابن جرير في «تفسيره».

ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى»، قال البيهقي: والاجتهاد هو القياس، وأخرج عن جماعة من الصحابة أنهم اجتهدوا، وقاسوا، فأخرج عن سفيان، حدثني عبد الله بن أبي يزيد، قال: سمعت ابن عباس إذا سئل عن الشيء، فإن كان في كتاب الله، قال به، وإن لم يجد، وكان في سنة رسول الله ﷺ، قال به، فإن لم يجد، وكان عن أبي بكر، أو عمر، قال به، فإن لم يجد اجتهد رأيه.وحديث أبي بكر في «الكلالة» أقول فيها برأيي، فإن يك صوابًا، فمن الله، وإن يك خطأ، فمني، ومن الشيطان، وعن مالك بن أنس قال: أنزل الله كتابه، وترك فيه موضعًا لسنة نبيه، وسن نبيه ﷺ السنن، وترك فيها موضعًا للرأي والقياس. انتهى.

قال الحافظ في «الفتح»: والحاصل أن المصير إلى الرأي إنما يكون عند فقد النص، وإلى هذا يومئ قول الشافعي فيما أخرجه البيهقي بسند صحيح إلى أحمد بن حنبل قال: سمعت الشافعي يقول: القياس عند الضرورة، ومع ذلك فليس العامل برأيه على ثقة من أنه وقع على المراد من الحكم في نفس الأمر، وإنما عليه بذل الوسع في الاجتهاد؛ ليؤجر ولو أخطأ، وبالله التوفيق. انتهى.

أخرج البيهقي، من طريق الشعبي، عن عمرو بن حريث، عن عمر ﷺ ، قال: [إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا] فظاهر في أنه أراد ذم من قال بالرأي مع وجود النص من الكتاب، أو السنة.

وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» بعد أن ساق آثارًا كثيرةً في ذم الرأي ما ملخصه:(اختلف العلماء في الرأي المقصود إليه

بالذم في هذه الآثار مرفوعها، وموقوفها، ومقطوعها، فقالت طائفة: هو القول في الاعتقاد بمخالفة السنن؛ لأنهم استعملوا آراءهم، وأقيستهم في رد الأحاديث، حتى طعنوا في المشهور منها الذي بلغ التواتر كأحاديث الشفاعة، وأنكروا أن يخرج أحد من النار بعد أن يدخلها، وأنكروا الحوض، والميزان، وعذاب القبر، إلى غير ذلك من كلامهم في الصفات، والعلم، والنظر.

وقال أكثر أهل العلم: الرأي المذموم الذي لا يجوز النظر فيه، ولا الاشتغال به، هو ما كان من ضروب البدع؛ ولهذا قال أحمد بن حنبل: (لا تكاد ترى أحدًا نظر في الرأي، إلا وفي قلبه دغل).

فالرأي المذموم في الآثار المذكورة، والقول في الأحكام بالاستحسان، والتشاغل بالأغلوطات ورد الفروع بعضها إلى بعض دون ردها إلى أصول السنن، وأضاف كثير من أهل العلم إلى ذلك من يتشاغل بالإكثار منها قبل وقوعها لما يلزم من الاستغراق في ذلك من تعطيل السنن). اهـ.

وقَوَّى ابنُ عبد البر هذا القول، واحتج له، ثم قال:(ليس أحد من علماء الأمة يثبت عنده حديث عن رسول الله ﷺ بشيء ثم يرده، إلا بادعاء نسخ، أو معارضة أثر غيره، أو إجماع، أو عمل يجب على أصله الانقياد إليه، أو طعن في سنده، ولو فعل ذلك بغير ذلك؛ لسقطت عدالته فضلًا عن أن يتخذ إمامًا، وقد أعاذهم الله ـ تعالى ـ من ذلك).

ثم ختم الباب بما بلغه عن سهل بن عبد الله التستري الزاهد المشهور قال: «ما أحدث أحد في العلم شيئًا، إلا سئل عنه يوم القيامة فإن وافق السنة سلم، وإلا فلا». اهـ.

ومما تقدم نعلم يقينًا أنه ليس كل رأي يجوز قبوله، أو ترك الإنكار على صاحبه، كما أنه ليس كل رأي يجوز رده، والإنكار على صاحبه، وأن من جاء برأي معارض للكتاب والسنة، فهو رأي ساقط لا اعتبار به، ولا حرمة له، وهو الذي يجب أن يطوى، ولا يروى، ومثل ذلك أيضًا من يلوي أعناق الأدلة، ويتكلف رد النصوص، ويضرب بعضها ببعض؛ لإثبات رأيه، وتصويب قوله، اتباعًا للهوى، وانتصارًا للنفس.

ومثله من يأتي بالرأي المحض، ثم يصوبه، ويصححه، وينتصر له اعتمادًا على ما ظهر له من نفع ذلك الرأي في أي مكان، أو زمان، مع ورود النصوص الدالة على تحريم ذلك الفعل، وهذا هو الاستحسان المذموم الذي حذر منه السلف غاية التحذير، إذ ليس كون الشيء نافعًا، دليلًا على صحته، وشرعيته، مع احترامنا لقائله إن كان من أهل الفضل والعلم، وبيان الحق له، والكشف عن وجه الصواب؛ لكي يزول الإشكال؛ فيرجع عن هذا الرأي المذموم. وهذا أحب إلى نفوسنا.

وأسوأ من ذلك كله من يأتي بفهم جديد للدين، والعقيدة، وأصول الإسلام الكبار، ومبانيه العظام، ويخالف بذلك فهوم الصحابة وعلومهم، زاعمًا أنهم لم يدركوا ما أدركه هو من الكتاب والسنة، ويرمي من يقف في طريق فهمه المخالف لفهوم الصحابة، يرميه بالتخلف والرجعية، والانغلاق، وأنه ليس عنده فقه للواقع، وأنه من أصحاب الكتب الصفراء، بل وبعض هؤلاء المفتونين يظن أنه أفقه وأعلم من السلف ويحتج بما جاء عند أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وهذا لفظ أبي داود عن زيد بن ثابت قال: سمعت النبي

ﷺ يقول: «**نضر اللهُ امرأً سمع منَّا حديثًا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**» فيجعل نفسه هو الفقيه الفاهم، والسلف هم مجرد نَقَلَةٍ لهذا العلم لم يفهموه ولم يَسبُروا غوره. بل لربما تبجح مصرحًا أنه قد جاء بفهم جديد للدين يخالف ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المهديون في أصول الدين وتشريعاته ومبانيه العظام.

فبئس ما جاء به من الرأي الفاسد، والقول الساقط، ولا شك أن هذا الرأي هو من أخبث الآراء التي يجب ردها، وتعزير صاحبها، والتعنيف عليه.

ومن هنا نعلم أن قبول جميع الآراء هو مما يخالف الشريعة تمامًا، وبحجة هذه الآراء ظهر أقوام يُرَقِّقُونَ الدِّين، ويجعلون من وجود الخلاف مسوغًا؛ لتمرير كثيرٍ من المسائل الباطلة، أو التي تروج للباطل، نسأل الله العافية والسلامة.

فالرأي المحترم المعتبر هو ما كان مبنيًّا على أصول الشريعة العامة ونصوص الكتاب والسنة وفقًا لفهوم الصحابة الكرام وعلومهم أو القياس المعتبر، أو الإجماع الصحيح وما عدا ذلك فلا.

والأمر كما قال، تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ النساء [١١٥]. والله أعلم.

❁❁❁

سابعًا: مفهوم كلمة السُّنَّة

لقد مرت هذه الكلمة بِعِدةِ أطوارٍ على مر العصور والأزمان، إلا أن استعمالها الأصلي ورد في الكتاب والسنة، بمعنى الهَدْي، والطريقة المتبعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ الله فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب [٦٢].

ومن ذلك قوله ﷺ:«لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه". قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال:فمن؟»[١]. **وغير هذا كثير في الكتاب والسنة بهذا المعنى بعينه.**

ثم لما ظهرت البدع كبدعة الخوارج، والمرجئة، والجهمية، والمعطلة، والأشاعرة، وغيرهم؛ أَلَّفَ أهلُ السُّنة والجماعة، كُتُبًا للرد على هؤلاء المبتدعة، أسموها كتب السنة؛ فجاءت السنة بهذا الاعتبار في مقابلة البدعة.

ثم بعد ذلك لما نظر الفقهاء في أصول الأحكام الواردة في الكتاب والسنة؛ اصطلحوا على أن السنة هي ما يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها، وعلى هذا درج الناس إلى يومنا هذا.

ولكن لما لم يكن عند عامة الناس علم بهذه المراحل التي مرت بها كلمة السُّنة؛ حصل عندهم خلط رهيب، بين المعنى الأصلي للسُّنة، والمعنى الحادث، الذي اصطلح عليه المتأخرون.

---

(١)متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، ﷺ.

لأن السُّنة بمعناها الأصلي الوارد في الكتاب و السُّنة، وعلى فهم الصحابة، رضي الله عنهم: من خالفها؛ فقد وقع في الحرام، وربما في الكبائر، أما على المعنى الحادث فما يعدو الأمر أن يكون قد ترك العبد مستحبًّا. ولا شك أن هذا خلط رهيب وخلل واضح في فهم هذه الكلمة.

ومما يدل على أن ترك السُّنة بمعناها الأصلي على فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ضلال وغواية وارتكاب للحرام ما أخرجه مسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ـ ﷺ ـ قَالَ: «مَنْ سَرّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاءِ الصّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنّ. فَإِنّ الله شَرَعَ لِنَبِيّكُمْ ﷺ سُنَنَ الهُدَى وَإِنّهُنّ مِنْ سُنَنِ الهُدَى. وَلَوْ أَنّكُمْ صَلّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصلّي هَذَا المُتَخَلّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنّةَ نَبِيّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنّةَ نَبِيّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهّرُ فَيُحْسِنُ الطّهُورَ ثُمّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ المَسَاجِدِ إِلاّ كَتَبَ الله لَهُ بِكلّ خَطْوَةٍ يَخْطوها حَسَنَةً. وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً. وَيَحُطّ عَنْهُ بِهَا سَيّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلّفُ عَنْهَا إِلاّ مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرّجُلَيْنِ حَتّى يُقَامَ فِي الصّف». **فانظر كيف أن ابن مسعود ـ ﷺ ـ عبر عن تارك السنة بالضلال وعَرَّض به بالنفاق. لنعلم جميعًا أن السنة في عرفهم غير السنة في عرفنا.**

ولأجل هذا الخلط الذي وقع عند كثير من العامة رأينا، وسمعنا من يقول عن كثير من فرائض الدين وواجباته: إنها من السنن، ومن ذلك ما يقال عن إعفاء اللحية: إنها من السُّنة، وإن الحجاب من

السُّنة، وإن ترك الإسبال في الثياب هو من السنن، وغير ذلك كثير مما هو جارٍ على أَلْسِنَةِ كثيرٍ من المسلمين، وهم يريدون بالسُّنة المعنى الحادث، لا المعنى الأصلي الذي جاء به الكتاب و السُّنة على فهم الصحابة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

فانظر، أخي! بارك الله فيك، أثر هذا الخلط وسوء الفهم على سلوكيات العباد؛ فصار الفرض مستحبًّا والحرام سنة والبدعة سنة والسنة بدعة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فمع أن توفير وترك اللحى وإعفائها من الفرائض الواجبة على كل المسلمين، وحلقها من المحرمات ومن الفسق الظاهر، وقد نقل ابن حزم[1] وغيره الإجماع على ذلك فلا خلاف بين السلف في أن إعفائها فرض، وأن حلقها أو التلاعب بها حرام وتشبه باليهود والمجوس كما وردت بذلك الأخبار عن النبي المختار ﷺ فعن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال:«**خالفوا المشركين:وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب**»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جزوا الشوارب، وأرخوا اللحى. خالفوا المجوس**»[3].

مع هذا كله إلا أننا مازلنا نسمع من يقول: إن إعفاء اللحى مجرد سنة فمن أعفاها فحسن ومن حلقها أو شوهها؛ حتى تعود كالعرجون القديم فلا حرج. والله المستعان.

---

(١)ذكر ذلك في كتابه «مراتب الإجماع» (ج١- ص١٥٧):(واتفقوا أن حلق جميع اللحية مثلة لا تجوز وكذلك الخليفة والعالم والفاضل).

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم.

في حين أن إعفاءها من الفرائض، وهذا ما أجمع عليه السلف الصالح إلا ما ورد من الخلاف فيما زاد على القبضة باليد فيما تحت الذقن، مع أن الراجح في ذلك هو تركها، وعدم الأخذ منها مطلقًا، أما ما دون ذلك فلا خلاف في تحريم حلقها، أو المساس بها، أو الأخذ منها ولو شيئًا يسيرًا، بما يُسَمَّى اليوم على أَلْسِنَةِ العامة بالتهذيب، أو التجميل ونحو ذلك من المسميات، التي يراد بها استحلال ما حرم الله ـ عز وجل ـ وضرب الأمثال لله والرسول.

ومن العجائب أنك ترى الرجل لا تكاد لحيته تتجاوز قبضة أصبعين، ومع هذا يحتج بما ورد في جواز أخذ ما زاد على القبضة، فيا للعجب من هذه المفاهيم المنكوسة المعكوسة !!!!

وكذلك الحجاب الذي هو من أوجب الواجبات، وهو من شعائر الإسلام الظاهرة، وفرائضه الثابتة، ولكن لوجود هذا اللبس الذي وقع في معنى السنة، هو الآخر سمعنا من يقول عنه أيضًا: إنه من السنن، فمن تحجبت فحسن، ومن تركت فلا حرج، مع أن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الأحزاب [٥٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ الله وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب [٣٢-٣٣].

وفي الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (كنا نساء المؤمنات، يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر، متلفعات بمروطهن، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، لا يعرفهن أحد من الغلس)[١].

قال أهل العلم في الشرح: (متلفعات) متلحفات، من التلفع، وهو شد اللفاع وهو ما يغطي الوجه ويتلحف به متجللات متلففات. (بمروطهن) جمع مرط، وهو كساء من صوف أو خز يؤتزر به. (ينقلبن) يرجعن. (الغلس) ظلمة آخر الليل.

وحذر النبي من التبرج والسفور فقال، عليه الصلاة والسلام: «**صنفان من أهل النار لم أرهما.قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»[٢].

وغير هذا كثير، ومع هذا كله نجد من يقول: إن الحجاب لا يعدو أن يكون أمرًا مستحبًّا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ليس هذا فحسب، بل حتى في الإسبال الذي جاءت فيه الأحاديث المتكاثرة في بيان حرمته والتغليظ على من فعله وأنه من كبائر الذنوب

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، ﷺ.

كقول النبي: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال أبو ذر: خابوا وخسروا. من هم يا رسول الله؟ **قال «المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**[١].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا**»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار**»[٣].

وعن ابن عمر ﷺ قال: مررت على رَسُول الله ﷺ وفي إزاري استرخاء، فقال: «**يا عبد الله ارفع إزارك**» فرفعته، ثم قال: «**زد**» فزدت، فما زلت أتحراها بعد. فقال بعض القوم: إلى أين؟ فقال: إلى أنصاف الساقين [٤].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**إزرة المسلم إلى نصف الساق، ولا حرج أو لا جناح فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، ومن جر إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر، ﷺ.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) أخرجه أبو داود. قال النووي: إسناده صحيح.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا، ومع هذا كله، ولهذا الخلط في مفهوم السُّنة سمعنا من يقول: إن رفع الإزار عن الكعبين هو من السنن فحسب، فالله المستعان وعليه التكلان.

وقل: مثل هذا في كثيرٍ من المأمورات، والواجبات، والمحرمات، كوجوب تسوية الشعر عند الحلق، وأن الحلق على هيئة القزع محرم، ولا يجوز، والقزع هو: أخذ بعض الشعر وترك بعضه بما يسمى اليوم بالكبوريا، أو التواليت ونحو ذلك، وكذلك فيما يتعلق باختلاط الرجال بالنساء، ومصافحة النساء، وسفر المرأة بدون محرم، وغير ذلك كثير، كل ذلك وقع، وحدث من جراء هذا الخلط الذي حصل في فهم معنى كلمة السُّنة بين كلام الصحابة، والسلف الصالحين، وما اصطلح عليه الفقهاء، فالله المستعان ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ وما ذلك إلا لبُعد كثير من العباد عن فهم معاني هذا الشرع العظيم.

❁❁❁

ثامناً: محبة الله تعالى

محبة الله ـ تعالى ـ هي الغاية العظمى، وهي المقام الذي يطمح ويتطلع إليه كثيرٌ من العباد، بل قد ادعاها كثيرٌ من الأمم والطوائف،حتى اليهود والنصارى قد زعموها كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِير﴾ المائدة [١٨].

وهذا يدل على أن هناك لبسًا وخللًا واضحًا عند كثير من الناس في فهم حقيقة هذه المحبة، ولهذا جعل الله ـ تعالى ـ دليلًا وشاهدًا على هذه المحبة، من أخذ به؛ فقد أخذ بأسباب المحبة وأقام الشاهد على صدقه، وهو برجاء أن تحصل له المحبة، ومن ترك الأخذ بالأسباب وأبى أن يقيم الشاهد على صدقه؛كان متبعًا للهوى، وآخذًا بالأماني الكاذبة، وذلك ما بينه الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز حيث قال، عز من قائل عليمًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُواْ الله وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ آل عمران [٣١-٣٢].

هكذا جاءت الآيات صريحة واضحة، حيث حصرت حصول المحبة وصدقها في صدق متابعة العبد للرسول ﷺ؛ فجاءت هذه الآية قاصمةً لظهور المدعين الكاذبين، والمُخَذِّلِين المنافقين، ولهذا أسماها أهل العلم بآية الابتلاء والامتحان، وسميت أيضا بآية المحبة، فهذا

هو المفهوم الصحيح لمحبة الله ـ تعالى ـ فمن أرادها فهذا هو سبيلها فإنه لا سبيل لنيلها إلا بمتابعة الرسول ﷺ الذي أرسله الله تعالى؛ ليدل العباد ويرشدهم إلى جميع ما يحبه الله ويرضاه، ويحذر من كل ما يكرهه الله ويأباه من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات.

وعلى هذا فهيهات هيهات! أن تحصل هذه المحبة لأعداء الرسول ﷺ، وأعداء دينه، وأتباعه على الحق، وإن أرغوا وأزبدوا، ورفعوا عقائرهم صائحين متبجحين بألسنتهم بمحبة الله عز وجل؛ فإن الأمر كما قال، تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلًا ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ النساء [١٤٢-١٤٣].

وما أحسن ما قاله ابن القيم في نونيته:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حبًّا له ما ذاك في الإمكـــان!

وكذا تعادي جاهدًا أحبـــابـــه أين المحبة يا أخا الشيطان؟

وكذلك، أين هذه المحبة ممن يحرص على التشبه بأعداء الإسلام في المناهج، والهيئات، واللباس، والصفات؟! هيهات هيهات ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُواْ الله وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّواْ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ آل عمران [٣١-٣٢].

❁❁❁

تاسعًا: مفهوم الولاية

ومن هم أولياء الله؟ وما هو المعيار الصحيح للكرامات؟

إن من أظهر الأمور، والمسائل التي وقع فيها اللبس البَيِّن الواضح هي: مسألة الولاية، وتحديد من هو الولي، وإن المتأمل لأحوال العباد في بلاد المسلمين شرقًا وغربًا؛ يرى بجلاءٍ ووضوح آثار هذا اللبس، وذلك الخلط الذي حصل من جراء عدم معرفة حقيقة الولاية، وبم تنال الولاية؟ وما هي صفات الولي التي يرتقي بها العبد؟؛ حتى يصير وليًّا لله رب العالمين.

وإن أكثر العباد يعتبرون الضابط في مسألة الولاية بما يظهر على يدي العبد من الكرامات، بغض النظر عن حال العبد من صلاح، أو طلاح، فبمجرد أن يروا أي كرامة من الكرامات ظهرت لهذا العبد؛ بادروا إلى نسبته إلى أنه ولي من أولياء الله، دون النظر في عمل العبد، فلو كان من المشعوذين الدجالين، أو من العبَّاد الصالحين كل هذا لا يهم، المهم أن تظهر على يديه الكرامات، أيًّا كانت تلك الكرامات، سواءٌ كانت كرامة من الرحمن، أو كانت كرامة من الشيطان، كل هذا لا يهم، المهم أن تظهر له الكرامة، فهذا القدر عند كثير من العباد كافٍ في تسمية العبد بأنه ولي من الأولياء.

إن من نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، أنه بَيَّنَ ـ تبارك وتعالى ـ صفات الولي، ومنزلة الأولياء عنده تبارك وتعالى، وكيف تنال هذه

الولاية؟

ولما كان الولي منسوبًا إلى الله تبارك وتعالى؛ كان لزامًا علينا أن نتعرف على ما قاله الله ـ تعالى ـ في أوليائه، الذين أضافهم إليه إضافة التشريف والإكرام؛ وإلَّا كنا قائلين على الله بغير علم، وناسبين إلى الله من ليس بأهل أن يضاف إلى الله رب العالمين إضافة التشريف والإكرام، ولا شك أن هذا من أعظم الجرم، وعظيم الظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ النساء [٤٩-٥٠].وقال، تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف [٣٣].وقال، تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ الله لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلًا قُلْ آلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ۞ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ يونس [٥٩-٦٠].وقال، تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ يونس [٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى الله الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النحل [١١٦-١١٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، كلها تنهى عن القول على الله بغير علم، ولاشك أن القول بأن فلانًا ولي لله، وهو ليس كذلك، أن هذا من القول على الله بغير علم.

فإن قال قائل: فكيف أعرف أن فلانًا ولي لله حتى أضيفه إلى الله

إضافة التشريف والإكرام؟

فالجواب على ذلك بأن نرجع إلى الكتاب والسنة، لنتعرف على صفات أولياء الله، وعلاماتهم، وإليك ـ أخي القارئ الكريم ـ جملة من الأدلة التي تتحدث عن الولاية وحقيقتها وأهلها وكيف تنال؟

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِّ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[يونس:٦٢-٦٤]. وقال تعالى:﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُّ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٦]. إذن من أعظم صفات الأولياء الصالحين اتصافهم بالإيمان، والتقوى، والصلاح في دنيا الواقع، والمعنى أنهم محققون للإيمان الصادق، ويقرنون ذلك بالعمل الصالح، وشعارهم ـ في كل ما يأتون ويذرون ـ التقوى.

والتقوى، كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

وعليه فإن من أبرز صفات أولياء الله الصالحين أنهم من المتقين، ولن يكون العبد من المتقين؛ حتى يكون من العلماء العاملين بعلمهم، كما قال سهل بن عبد الله التستري: الناس كلهم أموات إلا العلماء، والعلماء كلهم سكارى إلا العاملون، والعاملون مغرورون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر.

وقال تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة [٢٥٧].

ومن هنا نعلم يقينًا أن الله ـ تعالى ـ إنما يتولى أهل الإيمان الخالص الصحيح، وعلامة ذلك أنهم يعيشون في النور، الذي أخرجهم الله إليه حيث نجاهم من الظلمات، ظلمات الجهل والظلم، فهم من أبعد الناس عن الجهل؛ لأنهم من أهل العلم الصحيح، وهم من أبعد الناس عن الظلم؛ لاتصافهم بالعدل والإنصاف.

وفي «الصحيحين» عن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، جهارًا غير سر، يقول: « **ألا إن آل أبي (يعني فلانًا) ليسوا لي بأولياء.إنما ولي الله وصالح المؤمنين**».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُواْ الله وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ آل عمران [٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ الأعراف [١٥٦-١٥٧].

ومن هذا نعلم يقينًا أن أولياء الله ـ تعالى ـ هم من الذين يحبهم الله تعالى، وما ذلك إلا لأنهم يتبعون النبي ﷺ في كل صغيرٍ، وكبيرٍ من حياتهم مظهرًا، ومخبرًا.

فلا تراه إلا محبًّا للسنة، عاملًا بها، معتزًّا باقتفاء أثر المصطفى، عليه الصلاة والسلام،قد تشبه بالنبي ﷺ في مخبره، فقلبه قلبٌ سليم من الشبهات والشهوات، فهو من أصحاب القلوب السليمة، ثم هو متشبهٌ بالنبي ﷺ في مظهره أيضًا، فتراه مُعْفِيًا للحيته، مُقَصرًا ثوبه، رافعًا له عن الكعبين، يحرص على التحلي بأخلاق النبي ﷺ في شتى المجالات، ومختلف شئون الحياة لسان حاله ممتثلٌ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ الأحزاب [٢١].

كما أنه لا يحب الشهرة ولا الظهور، بل يَعُدُّ ذلك من قاصمة الظهور، فلا يهمه أن يجهله العباد، إن كان رب العباد يعرفه، فكفى بذلك شرفًا ومنزلةً. بل يكره أن يعرف أو يعظم، بخلاف من يدَّعُون الولاية، ويفرحون بتعظيم الناس لهم، فينحنون بين أيديهم، ويَحْبُونَ على الركب تعظيمًا لهم، بل وبعضهم يُسْجدُ له كما يسجد لله رب العالمين، وآخرون يأخذون التراب من تحت أقدامهم، ويَذُرُّونَهُ على رءوسهم وصدورهم، وغير ذلك كثير من ألوان التعظيم والغلو، حتى وصل الحال بالبعض أن يستغيثوا بهؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالأولياء، ويطلبون منهم ما لايطلب إلا من الله جل وعلا،من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وقضاء الحاجات، وكشف الملمات، ورزق الولد، وإدخال الجنة، وغير ذلك من ألوان الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر مع أن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه العزيز: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا

اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ فاطر [١٣-١٧].

وقال، تعالى:{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل : ٢٠ - ٢٣].

وقال تعالى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِّ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[الأحقاف :٥-٦]، فعن عامر بن سعد قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله. فجاءه ابنه عمر. فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك؟! وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد ﷺ في صدره فقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺيقول: «**إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي**»[1].

نعم إن الله ـ تعالى ـ يحب العبد الخفي، فأين هذا ممن صورهم في كل مكان تعظم وتعلق؟ وقد سرت بها الركبان، فأصبحت كالأصنام، بل هي بعينها أصنام اليوم والعياذ بالله من هذا الضلال العظيم، والشرك المبين.

---

(١) أخرجه مسلم.

كما أن من أبرز صفات الولي أنك تراه محافظًا على الفرائض، قائمًا بها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، ومن أعظم تلك الفرائض فريضة الإخلاص والتوحيد فهو لا يشرك بالله لا شركًا أصغر، ولا أكبر، ولا يحب أن يرفعه الناس فوق منزلته كما كان النبي ﷺ يفعل. فعن أنس ﷺ أن رجلًا قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدً بن عبد الله، عَبْدُ الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله، عز وجل»**[1].

كما أنه من أشد الناس حرصًا على جميع الفرائض في الجملة كما قال النبي ﷺ: **«إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»**[2].

أما الكرامات، فإن أهل السنة، والجماعة يثبتون الكرامات، ويروون في ذلك الأحاديث المتكاثرة كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه كما قال، تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًا

(١) أخرجه أحمد والنسائي في «الكبرى» بسند على شرط مسلم وإسناده صحيح، واللفظ لأحمد. وفي رواية النسائي: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم».
(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، ﷺ.

۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ الآية [مريم ٢٥ ـ ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران [٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ الآية [الكهف ١٦ ـ ١٧].

وأما الأحاديث فكثيرة جدًّا أذكر طرفًا منها:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رَسُول الله ﷺ عشرة رهط عينًا سرية، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال: لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا: انزلوا، فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً. فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ. فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة [يريد القتلى] فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خبيبًا،

وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرًا؛ حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسىً يستحد بها فأعارته، فدرج بنيٌّ لها، وهي غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك.قالت: والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، فوالله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبًا، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا، وقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وكان خبيب هو الذي سن لكل مسلم قتل صبرًا الصلاة، وأخبر (يعني النبي ﷺ) أصحابه يوم أصيبوا خبرهم، وبعث ناس من قريش إلى عاصم ابن ثابت، حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قتل رجلًا من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدَّبْرِ، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا [1].

وعن أنس، رضي الله عنه : أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، فلما افترقا، صار مع كل واحد منهما واحد، حتى أتى أهله. أخرجه البُخَارِيُّ من طرق. وفي بعضها أن الرجلين: أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، رَضِيَ

(١) أخرجه البخاري.

الله عَنْهُما.

وعن عروة بن الزبير: أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ﷺ خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم، وادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها، فقال سعيد: أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رَسُول الله ﷺ ! قال: ماذا سمعتَ من رَسُول الله ﷺ؟ قال سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين**» فقال له مروان: لا أسألك بينة بعد هذا، فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها، قال: فما ماتت، حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. وفي رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بمعناه، وأنه رآها عمياء تلتمس الجدر، تقول: أصابتني دعوة سعيد، وأنها مرت على بئر في الدار التي خاصمته فيها، فوقعت فيها، فكانت قبرها.

وعن جابر بن سمرة ـ ﷺ ـ قال: شكا أهل الكوفة سعدًا (يعني ابن أبي وقاص) ـ ﷺ ـ إلى عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ فعزله واستعمل عليهم عمارًا، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق! إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أمَّا أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رَسُول الله ﷺ لا أخرم عنها: أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخريين،قال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلًا ـ أو رجالًا ـ إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجدًا إلا سأل عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجدًا لبني عبس فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة يكنى: أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم السوية، ولا يعدل في القضية.قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم

إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياءً وسمعة؛ فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن ! وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد. قال عبد الملك بن عمير الراوي، عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن أبي هريرة ـ ﷺ ـ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون؛ فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر**» أخرجه البُخَارِيُّ. وأخرجه مُسلِمٌ من رواية عائشة.

وعن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ـ ﷺ ـ أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وأن النبي ﷺ قال مرة: «**من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة، فليذهب بخامس، بسادس**» أو كما قال، وأن أبا بكر ـ ﷺ ـ جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة، وأن أبا بكر تعشّى عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صلى العشاء، ثم رجع، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟قال: أوما عشَّيتهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء وقد عرضوا عليهم قال: فذهبت أنا فاختبأت، فقال: يا غنثر، فجدّع وسب، وقال: كلوا لا هنيئًا والله، لا أطعمه أبدًا.قال: وايم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا ! قالت: لا وقرة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات ! فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان [يعني يمينه] ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عهد فمضى الأجل فتفرقنا اثني عشر رجلًا مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع

كل رجل، فأكلوا منها أجمعون. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وغير هذا كثيرٌ جدًّا، والمعنى أن أهل السنة والجماعة لا ينكرون الكرامات، بل يثبتونها، ولكن يفرقون بين كرامات أولياء الرحمن، وكرامات أولياء الشيطان كما قال، تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ الله مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لله الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر [٢-٣]. وقال، تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾الأعراف [٢٧].

وقال، تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ الكهف [٥٠].

وقال، تعالى: ﴿أَم اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَالله هُوَ الوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الشورى [٩].

وقال، تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ الله شَيئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالله وَلِيُّ المُتَّقِين﴾ الجاثية [١٩].

فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن للشياطين أولياء من الإنس يستمتع بعضهم بالبعض الآخر، ومعنى ذلك أن كلًّا منهما له حظ يناله من الآخر كما قال، تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ

الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۞ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ الأنعام [١٢٨-١٣٠].

ولا شك أن بغية الشيطان، وغايته الكبرى أن يأخذ أكبر حظٍ معه من بني آدم إلى نار جهنم بعد أن ضمن مكانه هناك ـ عياذًا بالله من النار ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۞ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلًا ۞ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ الإسراء [٦١-٦٥].

وكما هو واضح من هذه الآيات وغيرها كثير تَبَيَّنَ أن الشيطان سيستعمل كل ما في وسعه، وسيجند كل طاقاته لإضلال العباد؛ ولهذا هو على استعداد تام أن يكرم أولياءه من شياطين الإنس ببعض الأمور التي يراها بنو آدم أنها خوارق للعادات، ولأن الشيطان يرانا من حيث لا نراه كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف [٢٧].

لهذا يظن بعض السذج من العباد أن هذه الخوارق للعادات

كرامات من الرحمن، وأن هذا الذي حصلت له هذه الخوارق هو من أولياء الله تعالى، ثم يستعمل الشيطان هذا الإنسان الشيطاني ليضل الناس ويدعوهم إلى نار السموم.

وهذا خلط آخر وقع عند كثير من العباد، حتى أصبحوا لا يميزون بين كرامات أولياء الرحمن التي يكرم الله ـ تعالى ـ بها عباده المؤمنين وبين كرامات أولياء الشيطان التي يخدم بها الشيطان أولياءه من الإنس، ليستعملهم في تحقيق ما يريد من بني آدم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يس [٦٠-٦٢].

ولهذا بيّن الأئمة الفرق بين كرامات أولياء الرحمن، وخبث أولياء الشيطان وأنقل لك ـ أخي القارئ الكريم ـ طرفًا من أقوالهم في ذلك:

قال القرطبي، رحمه الله تعالى: قال علماؤنا: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات، وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايته خلافًا لبعض الصوفية، والرافضة. اهـ[1].

وقال ابن كثير[2]، رحمه الله تعالى: **وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر، والكافر أيضًا**، بما ثبت عن ابن صياد أنه، قال: هو الدُّخ، حين خبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الدخان [١٠]، وبما كان

(١) ذكره القرطبي في تفسيره المجلد الأول في تفسيره قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا...﴾ الآية من سورة البقرة رقم (٣٤).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره المجلد الأول في تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة. وهي المشار إليها في الحاشية السابقة.

يصدر عنه، أنه كان يملأ الطريق إذا غضب؛ حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وكان الليث بن سعد يقول: **إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنّة**. اهـ.

قال في «شرح الحكم العطائية» للشرنوبي: قوله: **ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة**.

يعني: أن الكرامة التي هي الأمر الخارق للعادة لا عبرة بها عند المحققين، **وإنما الكرامة الحقيقية هي الاستقامة. ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عز وجل، واتباع ما جاء به رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا**. ولذا قال أبو يزيد: **لو أن رجلًا بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي**.

وقيل له: إن فلانًا يمر في ليلة إلى مكة، فقال: إن الشيطان يمر في لحظة من المشرق إلى المغرب.

وقيل له: إن فلانًا يمشي على الماء، فقال: الحيتان في الماء، والطير في الهواء أعجب من ذلك. اهـ.

وقال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُوْنُسُ، قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ: صَاحِبُنَا اللَّيْثُ يَقُوْلُ: **لَوْ رَأَيْت صَاحِبَ هَوَىً يَمْشِي عَلَى المَاءِ، مَا قَبِلْتُهُ.قَالَ: قَصَّرَ لَوْ رَأَيْتُهُ يَمْشِي فِي الهَوَاءِ، لَمَا قَبِلْتُهُ**. اهـ.

وقال في «حلية الأولياء»: وقال يونس بن عبد الأعلى: قال صاحبنا

يريد الليث بن سعد: **لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته.** اهـ.

وقال في «البداية والنهاية»: يوسف الأقميني:كان يعرف بالأقميني؛ لأنه كان يسكن قمين، حمام نور الدين الشهيد، وكان يلبس ثيابًا طوالًا تحف على الأرض، ويبول في ثيابه، ورأسه مكشوفة، ويزعمون أن له أحوالًا، وكشوفًا كثيرةً، **وكان كثير من العوام، وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته وذلك؛ لأنهم لا يعلمون شرائط الولاية، ولا الصلاح، ولا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كالرهبان وغيرهم، وكالدجال، وابن صياد وغيرهم**، فإن الجن تسترق السمع؛ وتلقيه على أذن الإنسي، ولا سيما من يكون مجنونًا، أو غير نقي الثياب من النجاسة.

فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة، فمن وافق حاله كتاب الله وسنة رسوله؛ فهو رجل صالح سواء كاشف، أو لم يكاشف، ومن لم يوافق فليس برجل صالح سواء كاشف، أم لا، قال الشافعي: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء؛ فلا تغتروا به،حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. اهـ.

وفيما ذكرنا كفاية لمن أراد الهدى، والحق، وأما من أراد الهوى، فلا حيلة معه والأمر كما قال أبو تمام:

وعبادة الأهواء في تطويحها بالدين فوق عبادة الأصنام

وعليه فليس كل من رأينا له خوارق للعادات، وكواشف، وأحوالًا؛ نسبناه إلى الولاية؛ حتى يكون مؤمنًا متبعًا للكتاب والسنة، مَظْهَرًا ومخبرًا، ويَفْهَم القرآن والسنة على فهم سلف الأمة الصحابة

الأخيار الأطهار، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين من عباد الله المؤمنين الصالحين.والله أعلم.

وأذكرك أخي القارئ! بما قاله الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز حيث قال، عز من قائل عليمًا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۞ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ الفرقان [١٧-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ من وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الجاثية [٧-١١].

❁❁❁

عاشرًا: الإيمان بالله

لقد كان الإيمان واضح المعالم على زمن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنه: **قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح**، يزيد وينقص: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، يزيد حتى يبلغ ذروته، وينقص حتى يتلاشى ويذهب، وذلك بحسب الطاعة أو المعصية التي عملها العبد.

فإن كانت المعصية من نواقض الإسلام، ذهبت بالإيمان بالكلية، وإن كانت دون الكفر أو الشرك أو النفاق؛ بقي مع صاحب المعصية مطلق الإيمان، وكان معرضًا للوعيد، وأمره إلى الله تعالى، فالأعمال منها ما هو شرط صحة في الإيمان ومنها ما هو شرط لكماله الواجب، ومنها ما هو شرط لكماله المستحب، وهذا الأمر كان متقرِّراً عند السلف الصالح من الصحابة و التابعين ومن سار على نهجهم القويم، دون أدنى لبس، ولا إشكال، حتى ظهرت بدعة الخوارج، الذين أخذوا يخرجون من دائرة الإيمان كل من ارتكب كبيرةً من كبائر الذنوب؛ لأنهم عبدوا الله تعالى بالخوف فقط، فلم يتصوروا أن الله جل وعلا، قد يغفر لصاحب الكبيرة ويدخله الجنة؛ فأخذوا بأدلة الوعيد بالعذاب، وتركوا أدلة الوعد بالمغفرة والرحمة، ونزعوا بأدلة عامة دون النظر إلى ما يخصصها؛ فحجروا واسعًا من رحمة الله تعالى؛ فحكموا على كل من ارتكب كبيرةً من كبائر الذنوب بالكفر في أحكام الدنيا؛ فاستحلوا دمه وماله، وبالخلود في النار في أحكام الآخرة، دون النظر إلى الأدلة الأخرى، ودون النظر في أحكام العذر

بالجهل المعتبر، والتأويل الذي له وجه من النظر، أو الشبه التي تُلْقَى من قبل الأئمة المضللين، فالكل عندهم سواء بسواء، وقد شاركهم في هذا المعتقد الخبيث المعتزلة، إلا أنهم خالفوهم فقط في أحكام الدنيا، فجاءوا في الإيمان بما لا يقوله الطفل الصغير، فقالوا: هو في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن معصوم الدم والمال، ولا هو كافر حلال الدم والمال.

ولما ظهرت هذه الفرقة المشئومة ـ عافانا الله وإياكم منهم ومما قالوا به ـ ظهرت في قبالتهم على الطرف الآخر، طائفة لا تقل خبثًا، ولا شؤمًا عنهم ـ وهكذا حال الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه، فإنه لا يعبأ بالعبد أن يحصل منه إما على إفراط أو تفريط ـ ألا وهي فرقة المرجئة الذين أخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان؛ فقالوا: لا يلزم في الإيمان أصلًا أيُّ عملٍ، بل سائر الأعمال بلا استثناء ما هي إلا ثمرات للإيمان، إن وُجِدَت فذاك أفضل، وإن عُدِمَت؛ فلا حرج، ولا يتأثر مسمى الإيمان بذلك مطلقا، ويبقى العبد في دائرة الإيمان، إذ ليس هناك شيء من الأعمال تركه كفر، بل وليس هناك شيء من الأعمال فعله كفرٌ أيضًا ﴿قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ التوبة [٣٠].

فتارك جنس العمل أمرا ونهيا،مؤمن كامل الإيمان،عند هذه الفرقة الضالة المضلة،فلو لم يركع العبد لله ركعة،ولم يقم بشيء من شعائر الإسلام،وأركانه،ومبانيه العظام؛فإنه لم يزل مسلمًا عند هؤلاء،وإيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ـ عياذًا بالله من هذا القول الشنيع العظيم ـ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾الكهف [٥]﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ الله عَظِيمٌ﴾ النور [١٥].

ومن المرجئة أيضًا من لم يكفر بشيءٍ من الأعمال، مهما عَظُمَت، حتى

يستحلها صاحبها، ويتلفظ بذلك بلسانه، وما عدا ذلك فلا، ولو فعل ما فعل، فالكفر كله عندهم اعتقادي وهذا هو قول غلاة الجهمية عياذًا بالله منهم.

ومن غلاة المرجئة من يقول: الإيمان المعرفة، ومنهم من يقول: الإيمان التصديق وهكذا عياذًا بالله من هذا الضلال العظيم.

ومن غلاة المرجئة من يقول:إن العمل داخل في مسمى الإيمان ولكنه شرط أو جزء كما ل لا شرط صحة، وهذه حذلقة من بعضهم بغية التوسط بين المرجئة وأهل السنة، وذلك لا يغني عنهم شيئا بل هم من غلاة المرجئة، فإن حقيقة قولهم أن الإيمان لا يتأثر بالأعمال وجودا وعدما، وأن الكفر لا يكون إلا بالاعتقاد عياذا بالله من الضلال.

فالخوارج أخرجوا من دائرة الإيمان من هو مؤمن، والمرجئة أبقوا في دائرة الإيمان من ليس بمؤمن.

وقال أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بالقول العدل الوسط الفصل في هذه المسألة الخطيرة الكبيرة، التي ضل فيها أقوام، وزلت فيها أقدام، واختلطت فيها أفهام: إن العبد إذا ثبت له عقد الإيمان بالنطق بالشهادتين، فإنه لابد أن يعمل بمقتضى هاتين الشهادتين، وإن كل ما سماه الله كفرًا في الكتاب أو السنة معرفًا بالألف واللام، فهو الكفر الأكبر الذي من قارفه متعمدًا عالمًا لا متأولًا ولا جاهلًا جهلًا معتبرًا؛ فقد كفر بالله العظيم، ولو نطق بالشهادتين الليل والنهار، وإن كل معصية دون الكفر أو الشرك، فإن صاحبها تحت المشيئة إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ثم مآله إلى الجنة.

فليست كل الأعمال شرطًا في صحة الإيمان، كما أن وجود الأعمال لازم من لوازم الإيمان، فتارك جنس العمل كافر بالله العظيم. هذا هو التصور الإسلامي الصحيح للإيمان على فهم سلف الأمة الأطهار: الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ والله أعلم.

❁❁❁

الحادي عشر
معنى الشهادتين

إن معرفة المعنى الصحيح للشهادتين هو الطريق الأمثل، الذي لا يُقْبَلُ من العبد غيرُه لفهم حقيقة الدين والإيمان.

وبالنظر إلى بعض الكتب التي تكلمت عن معنى لا إله إلا الله؛ وجدنا أن بعضهم لم يعرف بعد حقيقة هذه الكلمة العظيمة، التي بها قامت السماوات والأرض، وعليها وقعت الخصومة بين أتباع الرسل وأتباع الشياطين؛ مما يدل على خلطٍ واضحٍ عند هؤلاء في فهم المعنى الصحيح لهذه الشهادة الكبرى، فقد وُجِدَ في بعض الكتب أن معنى لا إله إلا الله هو: [لا رب ولا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت غير الله تبارك وتعالى]، ويظنون أنهم بهذا قد أتوا بالمعنى الصحيح المراد من هذه الكلمة الطيبة.

وهذا خطأ محض إذ لو كان هذا هو المراد من هذه الكلمة؛ لما تردد أحدٌ من المشركين في قولها؛ لأنهم في غالبهم يُقِرُّون بهذه الحقائق: أن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت إلى غير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى، فلو كان هذا معناها فقط؛ لما احتاجوا إلى الحروب والمعارك الضارية مع الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم المؤمنين، ولما كان هناك سببٌ لهذه المعارك أصلًا، إذ إنهم بهذا الاعتبارجميعًا يُقَرِّرُونَ حقيقة هذه الكلمة.

ولكن، ولعلم المشركين أن معنى هذه الكلمة هو أمر وراء ذلك

كله، وأنها تستلزم لوازم عظمى، وواجبات كبرى يجب القيام بها حال التلفظ بها؛ أَبَوْهَا وحاربوا من جاء بها.

علمنا من ذلك يقينًا أن معناها أمر غير ما ذكره هؤلاء الكتاب، وغير ما اعتقده بعض المسلمين وأن معنى هذه الكلمة الطيبة العظيمة: **هو إفراد الله تعالى بأفعال العبادة والعباد، وأنه لا معبود بحق إلا الله رب العالمين، مع البراءة من الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، ومجاهدتهم ومعاداتهم ولو كانوا أقرب الناس.**

عندها فقط يكون العبد قد استمسك بالعروة الوثقى التي هي: (لا إله إلا الله) كما قال تعالى:﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة [٢٥٦].

وكما أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي عبد الله طارق بن أشيم ـ ﷺ ـ قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله**».

قال الإمام المجدد محمد بن سليمان التيمي ـ رحمه الله تعالى ـ معلقًا على هذا الحديث: وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه؛ حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف؛ لم يحرم ماله ولا دمه، فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع.انتهى.

ومن هنا نعلم أن إفراد الله تعالى بأفعاله فقط، ليس هو معنى لا إله إلا الله، بل لابد لتحقيقها من إفراد الله تعالى أيضًا بأفعال العباد، بحيث لا يصرف العبد شيئًا من العبادات لا في قليلٍ ولا في كثير لغير الله جل وعلا، فكما أن الصلاة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، فكذلك النذر، والطواف، والحلف، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستغاثة، والاستعاذة، والاستعانة، والحكم والتشريع، وغير ذلك من أنواع العبادة؛ يجب صرفها لله الواحد القهار لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه سبحانه وتعالى عما يصف المبطلون، كما أنه يجب إفراده تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته، وإثباتها له وحده لا شريك له فيها، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ الشورى [١١].

فلن يبلغ العبد أن يقوم بحق لا إله إلا الله؛ إلا إذا حقق هذه الأنواع الثلاثة من التوحيد، توحيد الرب تعالى بأفعاله، وتوحيده وإفراده بأفعال العباد وعباداتهم، وإفراده تعالى بأسمائه وصفاته، وإثباتها على وفق ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة على فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وسلف هذه الأمة الأطهار الأخيار.

وإن مما يجب التنبيه عليه والتنبه له: أن بعض العباد يظن أنه إذا اجتنب شرك القبور، وتعظيم المقبور، أنه بذلك قد حقق التوحيد، وقام بحق رب العبيد تبارك وتعالى، ولو كان مواليًا لأعداء الله، مطبقًا لغير شرع

الله، ولو كان حاصرًا العبادة في دور معينة، فيعزل لا إله إلا الله عن باقي مناحي الحياة، فلا دخل لها في السياسات، ولا في الاقتصاد، ولا في علاقات الدول، إلى غير ذلك من صور الإشراك الصُّراح، والكفر البواح، وهي المعروفة اليوم (بالعلمانية)، التي معناها باختصار: تعدد الآلهة، فإله للاقتصاد، وآخر للسياسات، وآخر للتقاليد والعادات، مع إله حق يُصلَّى له ويُصَام، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

فهيهات هيهات فإن هؤلاء هم من أجهل العباد بمعنى لا إله إلا الله التي جاءت لتبسط هيمنتها على جميع حياة العباد فهي منهج متكامل للحياة ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ المنافقون [٧].

ولهذا فإن هؤلاء يصرحون بحصر عبادة الله في المساجد، وعبر طقوس معينة، وأما باقي الوقت فتعبد فيه الهوى، فهم ينادون اليوم بعبادة الهوى، وليس هذا بأمرٍ غريب، ولا جديد منهم، فإنه ما من نبي ولا رسول بعثه الله تعالى، إلا وقابله قومه بالعلمانية، التي هي المناداة إلى تعدد الآلهة؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ عن العلمانية الأوائل، الذين هم المشركون بالأمس، والمنافقون اليوم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ص [٤-٧].

بل وذكر الله ـ تعالى ـ قول العلمانية المعاصرين على لسان أسلافهم من المشركين في كتابه العزيز وذلك في قصة شعيب، حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۞ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود [٨٤-٨٧].

فانظر إلى قوم شعيب، كيف اعترضوا على شعيبٍ عليه السلام، لما أمرهم بتحقيق العبودية التامة العامة لله الواحد القاهر، في شتى وجميع مناحي الحياة،كيف أنهم أَبَوْا ذلك ورفضوه، وقالوا: ما دخل الدين في الأموال؟ والمعاملات والعلاقات؟

وهكذا المشركون المعاصرون، والمنافقون المتسربلون باسم الدين، ينادون اليوم إلى ما نادى به أسلافهم من المشركين؛ ﴿أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هود [١٨].

❁❁❁

الثاني عشر: العدل والمساواة

العدل مطلب تَتُوقُ إليه جميع النفوس، والمساواة شعار ترفعه كثير من الأمم والجماعات في الماضي وفي عالم اليوم كذلك، إلا أن مفهوم العدل والمساواة اعتراه ما اعترى كثيرًا من المفاهيم المغلوطة التي أخطأ الناس في تصورها التصور الصحيح ولهذا وجدنا اليوم من ينادي: بالعدل بين الناس في الأموال، والأملاك بحيث لا يبقى في المجتمع غني وفقير، بل المال كلأ مباح للجميع؛ فلا يستأثر به أحد على أحد؛ فألغوا الملكية الفرديّة، ونادوا بالملكية الجماعية؛ فظهر ما يعرف بالاتجاه الاشتراكي الماركسي، والذي نادى به هم أفراخ اليهود من الملاحدة والدهرية الذين قاموا على النظام الإقطاعي، وضاقوا بالكنيسة ذرعًا لممارساتها الخاطئة، وهم أصحاب المقولة الإلحادية العلمانية الفاجرة الكافرة: (الدين لله والوطن للجميع، فما لله لله، وما لقيصر لقيصر) وهذا المفهوم للعدالة كان مفهومًا خاطئًا؛ لم يخدم قضية الإنسان، ولم يحترم قدراته ولم يتماش مع طموحاته فسقط صريعًا ـ بحمد الله تعالى ـ في دولته التي نادت به ـ وهي الاتحاد السوفيتي ـ إلا أن العجيب في الأمر أن أصحاب هذا المفهوم الهدام اقتنعوا بعدم جدواه، وصلاحيته لبني الإنسان، إلا أنه مازالت هناك دول وأفراد ينادون بهذا الفكر الإلحادي الخبيث، ويسعون في إحياء هذا المفهوم المنكوس للعدالة! المهم أن هذا المفهوم هو أحد الممارسات الخاطئة لفهم حقيقة العدالة.

أما عن المساواة؛ فقد لقيت هي الأخرى حظًّا كبيرًا من سوء الفهم؛ حيث ذهب فئام من الغرب الكافر، وتبعهم على ذلك الناعقون ـ من المنتسبين إلى الإسلام ـ إلى المناداة بالمساواة بين الرجل والمرأة، والمسلم

والكافر؛ فنعطي المرأة جميع حقوق الرجال، والعكس ـ فعاشت المرأة جحيمًا يحكيه واقع القوم، ولسان حال المرأة في الغرب: خذوا مالي بل وكل ما أملك، وأعيدوا إلي: عفافي، وحيائي، وأنوثتي، وأمومتي، ولكن هيهات هيهات؛ فها هي ذي اليوم تئن من ثقل ما على كاهلها من الآصار والأغلال التي كلفت بها مع ضعفها، وقلة حيلتها كما قال تعالى: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ طه [١١٧] ، فالشقاء والكد والتعب والضرب في الأرض من خصوصيات الرجل لا المرأة، والحق ما شهدت به الأعداء؛ فواقعهم خير شاهد على ما نقول فها هي ذي صيحات نسائهم تعلو بين الحين والآخر؛ تشكو ألمًا وجحيمًا وبؤسًا وشقاء كتبه الله على كل من أراد أن يغير فطرته التي فطر الناس عليها ـ كما أنهم نادوا بأن نجعل المعيار بين العباد هو مجرد المواطنة والأرض، لا التقوى والإيمان، فجاء الإسلام بوجهه المشرق الوضاء؛ ليقضي على جميع هذه الترهات والمفارقات المغلوطة والمفاهيم المنكوسة؛ ليبين المفهوم الحقيقي، والصحيح للعدل والمساواة فبين أن لكل إنسان حقه في التملك بالضوابط الشرعية، فلا غش ولا خداع ولا غرر ولا ربا، كما أنه فرض على الأغنياء صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء؛ تكافلًا ومواساة وتأليفًا لقلوب المجتمع بعضه على بعض، وحرم الاحتكار المفضي إلى التضييق على الناس في أسباب معاشهم، ونادى بالتكافل والتراحم وصلة الأرحام وإطعام الطعام وتفقد أحوال المسلمين في كل مكان؛ لسد حاجتهم وإغاثة ملهوفهم وإعانة محتاجهم، وأمر بتفقد الجيران فليس المؤمن الذي يبيت وجاره جوعان، وأمر بعدم إتباع الصدقة بالمن والأذى، وبين أن النفع المتعدي أعظم وأحب إليه من النفع القاصر، ومثل ذلك كثير كثير في هذه الشريعة السمحة الغراء مما لا يتسع له المقام في مثل هذه العجالة، كما أنه وفي نفس الوقت بين أن طبيعة المرأة ليست كطبيعة

الرجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ آل عمران [٣٦]؛ فأعطى كل ذي حق حقه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت [٤٦]، فبين أن للمرأة حقوقًا كما أن للرجل حقوقًا ولكن ليسوا سواء في هذه الحقوق كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ البقرة [٢٢٨]، فكما أنه لا يصلح للرجل أن يكون امرأة فلا يصلح للمرأة أن تكون رجلًا ويا للعجب! لماذا لا ينادون بأن نعامل الرجال معاملة النساء بدعوى العدل والمساواة؟ فبدل أن نأمر المرأة الضعيفة أن تكون قوية مطيقة لما يطيقه الرجال، لماذا لا نأمر الرجال أن يتنازلوا عن قوتهم؟! ليصبحوا مثل النساء وهذا أوجه إن كان المعيار ما يقولون ﴿قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ النور [٣٠]، لكنهم لن يفعلوا ذلك؛ لعلمهم أن نظام الحياة سيختل ولأن مرادهم من وراء ذلك هو إخراج المرأة من خدرها وهتك حيائها وكسر رتاج عفافها؛ لتبقى ألعوبة في أيدي ذئاب البشر وتجار الأعراض الذين يسعون لنشر الرذيلة والفساد في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ النساء [٢٧]، فأمر الإسلام بإيصال الحقوق إلى أهلها ووضع المرأة في مكانتها العالية الرفيعة في الإسلام؛ فهي محضن الأمومة وهي مربية الأجيال وهي مصنع الرجال، وبَيَّنَ أن أفضل أمرٍ لهَا أن تقر في بيتها؛ فهي مكلفة من قبل الله العظيم بأمر يعجز عنه الرجال وإن كثروا ألا وهي قضية التربية وتنشئة الناشئة على تقوى الله وطاعته، ولكن يأبى المنافقون إلا أن يخرجوها ﴿أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هود [١٨]، ﴿هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون [٤]، كما جعل الإسلام للمرأة شرفًا ومنزلة عظيمة ليست للرجال، حيث إنه جعل لمن رزقه الله بنتين فقام عليهما وأحسن أدبهما وتربيتهما، كانتا حجابًا له من النار وسببًا لدخوله الجنة؛ فلله الحمد والمنة فقد أخرج البخاري ومسلم

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخلت علي امرأة ومعها بنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا سوى تمرة واحدة فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت وخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرته فقال: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار**». وأخرج مسلم عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا دخلت أنا وهو في الجنة كهاتين**».

كما بين الإسلام أن المعيار في المفاضلة بين الناس ليس على أساس التراب والأوطان والأجناس؛ فهذا لا يصلح معيارًا بين العباد؛ لأنه ليس من كسبهم حتى يفخروا به ويتفاضلوا على أساسه، فإن الإنسان يولد في مكان ليس هو من اختياره، ولم يُسْتَشَرْ فيه، فعلى أي أساس يقصي هذا ويقرب هذا على أمر لا كسب له فيه؟! فهذا من أعظم أنواع الظلم؛ أن تأخذ الناس بجريرة غيرهم، أو على الأقل بأمر لا يد لهم فيه، وأما الأجناس فكلنا أبونا آدم، وأمنا حواء، فعلى أي شيء نتفاخر ونحن أبناء عمومة في حقيقة الأمر؟! ولهذا جعل الإسلام هذا التفاخر من أمور الجاهلية التي جاء الإسلام ليبطلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات [١٣].

وأخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ: أَنّ النّبِيّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيّةِ، لا يَتْرُكُونَهُنّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنّجُومِ، وَالنّيَاحَةُ» وما أخرجه الترمذي بسند فيه ضعف، وله شواهد أخرى من طريق هِشَام بنُ

سَعْدٍ عن سَعِيدِ بنِ أَبي سَعِيدٍ المقبري عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النّبيّ ﷺ قالَ: «لَيَنْتَهِين أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الّذينَ مَاتُوا، إِنّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنّمَ، أَوْ لَيَكُونُنّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنَ الجُعَلِ الّذِي يُدَهْدِهُ الخرءَ بِأَنْفِهِ. إِنّ الله قد أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبّيّةَ الجَاهِلِيّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ. إِنّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقيّ، وَفَاجِرٌ شَقيّ. النّاسُ كُلّهُمْ بَنُو آدَمَ. وآدَمُ خُلِقَ مِنَ تُرَاب».

ولعلي رضي الله عنه أبيات في هذا المعنى وهي مشهورة من شعره:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ولما كانت هذه الأمور لا تصلح أن تكون معيارًا للعدل والمساواة، جعل الشارع الحكيم أمرًا عظيمًا دقيقًا، به يكون تقييم العباد، ويعرف الصالح من الطالح، والمصلح من المفسد، ألا وهو علاقة العبد بربه ـ تبارك وتعالى ـ التي إن حسنت كان العبد حسن الخلق مع الغير، ساعيًا بالعدل والإنصاف بينهم؛ لأنه سيكون قائمًا بأمر الله فيهم، فالمقرب من قربه الله تعالى، والمبعد من أبعده الله تبارك وتعالى، فمن خان الله تعالى ـ الذي أحسن إليه من جميع الوجوه والعبد بحاجة ماسة إليه وإلى نعمه تبارك وتعالى ـ فهو لما سواه أظلم وأخون، وإن رفع من الشعارات ما رفع، وإن نادى بالعدالة والمساواة الليل والنهار. وعليه فلا الوطن ولا المال ولا الحسب ولا النسب يصلح معيارًا: لتقييم الناس، وضبط علاقاتهم بعضهم

ببعض، بل هو الدين والإيمان والتقوى والإحسان، وما عدا ذلك فلا عدل ولا مساواة، بل هو مبدأ الغاب والذئاب، القوي يأكل الضعيف، واللقمة السائغة دائمًا في فم الأقوياء، وهذه هي شريعة الغاب التي يدندن حولها الكافرون والمنافقون والمرجفون، لا كثرهم الله. والله أعلم.

❁❁❁

الثالث عشر: إكرام الضيف

إن إكرام الضيف من الأخلاق العالية[1]، والمطالب السنية التي حرص عليها حتى أهل الجاهلية في جاهليتهم، وقد جاء الإسلام ليشد من أزر هذا الخلق النبيل الرفيع، فأكد عليه وجعله من خصال الإيمان الهامة التي تدل على نبل النفس، واحترام الآخرين، وسلامتها من الشح المخزي المهلك، بل وجعل له حقًّا مشروعًا يجب أداؤه وإيصاله للضيف. وقد ورد في الحث على إكرام الضيف وبيان أن ذلك من هدي الأنبياء والمرسلين الكثير من الآيات والأحاديث، فمنها **قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام**: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ الذاريات [٢٤ ـ ٢٨] **وقوله تعالى عن لوط عليه السلام** ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ﴾ الحجر [٦٨] وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل**

---

(١) الأصل في كل خلق نبيل شريف هو دين الله تعالى الذي أوصى به إلى أنبيائه ورسله وإنما تلقى أهل الجاهلية ذلك عن بقايا موروثات الأنبياء والمرسلين التي بقيت في أقوامهم، فأصل كل خير دين الله تعالى كما أن أصل كل شر الجاهلية.
وإنما نبهت على هذا لأن البعض يظن أن أهل الجاهلية هم الذين قاموا بهذه الأخلاق، وإنما جاء الإسلام ليقررها فحسب، وهذا من المفاهيم الخاطئة أيضًا.

خيرًا أو ليصمت» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. وعن أبي شريح خويلد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه جائزته**» قالوا: وما جائزته يا رَسُول الله؟ قال: «**يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ولكن الآن ـ عباد الله ـ قد وقع خلط في مفهوم إكرام الضيف فقد قصر فيه أقوام وأفرط فيه آخرون، فمنهم من أنقص قدر الضيف، ولم يعطه حقه من الإكرام، ومنهم من تجاوز حد الإكرام فخرج إلى حد المداهنة، بل ولربما ارتكب من أجله الحرام، وكل هذا إفراط وتفريط، فجاء الإسلام؛ ليبين أن إكرام الضيف واجب، ولكن بحدود الشرع لا على ما اقتضته العادات أو التقاليد أو واقع الأكثر من الناس، وأن من أعظم البر والإحسان إلى الضيف أن تحمله على طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ إذ أن سلامة دينه أولى من تسمين بدنه وترفيه حاله وإن أقوامًا لم يعوا هذه الحقيقة فظنوا أن من إكرام الضيف عدم الإنكار عليه حال قيامه ببعض الأعمال المشينة أو تعاطيه لبعض المحرمات، فالبعض يرى من الضيف تقصيرًا في الصلاة فلا ينكر عليه ولا يناصحه بحجة إكرامه وعدم النيل من مشاعره احترامًا له، وبعضهم يتناول الضيف في بيته المحرمات من شرب للدخان أو سفوف أو شموم محرمة ولا ينكر عليه أيضًا، وبعضهم يرى من الضيف أحوالًا أخرى لا ترضي الله ـ عز وجل ـ فيجامله على حساب دينه فيعمل على إرضاء ضيفه ولو بسخط ربه ـ تبارك وتعالى ـ بل ومن الدواهي أن البعض لربما صحب ضيفه إلى أماكن المحرمات من المرئيات أو المسموعات أو إلى دور الخنا والفساد بزعم إكرامه، فلا يمانع ضيفه إذا طلب منه أن

يوصله إلى أحد تلك المواطن الآسنة المشبوهة التي غضب الله عليها بل وثالثة الأثافي أنك ترى البعض يقتني الحرام بغية إكرام ضيفه وتلبية لجميع رغباته حتى ولو كان ذلك بتعاطي ما حرم الله عليه؛ كل هذا وغيره كثير يقع بدعوى إكرام الضيف مما يدل على أن مفهوم إكرام الضيف قد اعتراه خلل واضح وخلط بيِّن يجب علينا أن نتداركه وأن نصححه بالمفهوم الشرعي الصحيح الذي يُعْطَى فيه الضيف حقه كاملًا بحدود شرع الله ـ عز وجل ـ على أن لا يخرجنا ذلك إلى طور ارتكاب المحرمات من أجل إكرام الضيف، فإن ترك الإنكار للمنكرات محرم ولا يجوز، والإعانة على الحرام محرم ولا يجوز، فكيف يسوغ فعل ذلك بدعوى إكرام الضيف.

والضيف الذي لا يحترم الدين ولا يعرف للشرع حقه ولا يعرف للرب قدره؟! حري بنا أن نكرمه ببيان ذلك له فإنه أولى ما أكرمت به مثل هذا الضيف؛ إذ إنك بذلك تهديه وتدله إلى أعظم محل يكرم فيه العبد؛ إذ أنت بذلك تأخذ بيده إلى ﴿جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر [٥٤ ـ ٥٥] فليس صحيحًا أن إنكارك عليه وتوجيه النصح والإرشاد إليه من عدم إكرامه، من قال هذا؟! إن هذا هو التصور الخاطئ في مسألة ومفهوم إكرام الضيف بل على العبد أن يحرص على إهداء النصح لضيفه أكثر من حرصه على إطعامه وإقرائه، فإن هذا من أعظم البر والإحسان إلى الضيف. والله أعلم.

❁❁❁

الرابع عشر: الحجاب الشرعي

الغيرة على المحارم خلق عظيم يحبه الله ـ عز وجل ـ ويحبه رسوله ﷺ فمن ذلك ما جاء في «الصحيحين» عن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة**».

فالغيرة دليل على الرجولة وكمال العقل والدين، ونقص ذلك أو قلته دال على نقص الرجولة والعقل. فكيف إذا زال ذلك عن الرجل بالكلية؟ عياذًا بالله من الدياثة وأهلها، وإن الديوث لا يريح رائحة الجنة عياذا بالله من ذلك. وعليه فإن العمل على سَترة النساء وتسترهن وحمايتهن من أيدي وأنظار العابثين أمر فرضه الله ـ عز وجل ـ على عباده المؤمنين من الذكور والإناث، فالكل مطالب بالحفاظ على الأعراض، والكل مأمور بالحيلولة دون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إلا أن الرجال ألزم بذلك من النساء؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعلهم قوامين على النساء كما **قال تعالى**: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله﴾ النساء [٣٤]؛ ولهذا كان الأمر بصيانة المرأة عن كل ما يشينها آكد في حقهم دون غيرهم مع وجوب اشتراك الجميع في تحقيق هذا الهدف السامي العظيم؛ ولهذا شرع الله ـ تعالى ـ الحجاب الشرعي الذي فرِضَ صيانة وعفافًا

للمرأة وإكرامًا لها أن تكون ألعوبة ومتنزهًا لذئاب البشر ـ عياذًا بالله منهم ومن أفعالهم ـ فهذا الحجاب بإذن الله ـ تعالى ـ يحول بين المرأة وبين أمثال هؤلاء العابثين؛ ولهذا ترى الأنظار والنفوس تجل وتحترم المرأة الصادقة في حجابها وتبتعد عنها بكل سبيل بينما ترى الأنظار والمتابعات والمطاردات العينية والبدنية والظنون السيئة من قبل المفسدين في الأرض تحوم حول المرأة المتهاونة في حجابها فضلًا عن المتهتكة فيه العابثة بحيائها، نسأل الله العافية والسلامة!.

ولما كان الأمر بهذه الأهمية والخطورة وجب بيان المعنى الشرعي للحجاب الذي ما فتئ أعداؤنا يحاربونه على أيدي أقوام هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها كما وصفهم بذلك الصادق المصدوق[1] ـ عليه صلوات ربي وسلامه ـ لعلمهم أن هلاك الأمم في فساد نسائها فجدوا في ذلك واجتهدوا قاتلهم الله، كما جاء في «الصحيحين» عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**» وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» أخرجه مُسْلِمٌ.

فأقول إن مفهوم الحجاب قد اعتراه خلل واضح جلي يشهد لذلك تلك الممارسات الخاطئة والتطبيقات السيئة للحجاب في شارع المسلمين العام وبيوتاتهم عند حضرة غير المحارم، مما هو أكبر دليل على غياب الفهم الصحيح للحجاب الشرعي الذي طالب الله ـ تعالى ـ به نساء المؤمنين، وكلف الرجال بالقيام عليه وصيانته على الوجه الأمثل، فالبعض لا يفهم

---

(١) متفق عليه: من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

من الحجاب سوى أن تستر المرأة ما فوق الركبتين مع شد خرقة على شعرها، فترى المرأة في بعض بلاد المسلمين تسير بجانب زوجها وقد كشفت عن كثير من مفاتن بدنها ومحاسنه نسأل الله العافية والسلامة! والبعض الآخر لا يفهم من الحجاب سوى أن تغطي المرأة بدنها عن الأجانب في الشوارع فقط أما في البيوتات فلا حرج، والبعض الآخر لا يفهم من الحجاب سوى أن تغطي المرأة وجهها بالنقاب وإن ظهر منها ما ظهر بعد ذلك من الوجنتين وشيء من الخدين والقدمين واليدين، والبعض الآخر يرى أن الحجاب هو أن تستر المرأة نفسها بأي شيء سواء كان فاتنًا أو ضيقًا أو شفافًا؛ كل هذا وغيره كثير مما نراه ونشاهده في شوارع المسلمين وأسواقهم.

ليس هذا فحسب بل إن من العجائب أن بعض المنسوبين للصلاح ـ ولا شك أن ذلك واقع عند غيرهم من باب أولى ـ تراه يجلس فيما يسمى بالجلسات العائلية مع إخوانه وأعمامه وكل واحد معه زوجته وقد كشفت عن قدميها وساعديها أو شيء من ذلك مع البراقع التي تبدي مفاتن المرأة، ويجلس الرجال في مقابلة النساء في مكان واحد ينظر بعضهم لبعض، بل ولربما أدارت المشروبات عليهم إحدى النساء، وتسمع السواليف والضحك من هنا وهناك ـ عياذًا بالله ـ من ذلك، كل هذا بحجة أنها جلسة عائلية فعندهم لا حرج في ترك بعض الحجاب في مثل هذه الجلسات، فنسأل الله العافية والسلامة، ليس هذا فقط بل وبعض النساء ترتدي الحجاب عادةً لا عبادةً فإذا وجدت فرصة في خلعه أو التهاون فيه بادرت إلى ذلك وما أكثر تلك المشاهد المزرية التي نراها من بعض النساء في الأسواق وعند الخياطين وفي السيارات عند السائقين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أي حجاب هذا الذي تفهمون؟! وأي غيرة هذه التي في قلوب هؤلاء الرجال؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما كشف القدمين فهذا البحر الذي لا ساحل له اليوم عند كثير من

النساء بل إن أكثر الرجال اليوم يرى أنه لا حرج ولا غضاضة على المرأة في كشف قدميها حتى من بعض المنسوبين إلى الصلاح مع أن الأدلة الواردة في تغطية المرأة لقدميها صريحة أكيدة لا لبس فيها، ولكن الغياب لمفهوم الحجاب هو الذي أوقع هؤلاء في مثل هذه الغفلة والزلة العظيمة، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**» فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخين شبرًا**» قالت: إذًا تنكشف أقدامهن. قال: «**فيرخينه ذراعًا لا يزدن**» أخرجه أبو داود والترمذي وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح. فيا عجبًا لمن يسمح لنسائه بذلك، أما علم أن الله لا يرضى بذلك وأن ذلك علامة على قلة غيرته وضعف رجولته؟! فيا سبحان الله! من أمثال هؤلاء الرجال! نسأل الله العافية والسلامة!

ومن النساء من تظن أنه يجوز لها ـ إذا كانت في مجمع من النساء لا رجل معهن فيه ـ أن تكشف عورتها وأن تبدي مفاتنها، وأن تلبس الضيق من الثياب أو الشفاف الرقيق الذي يصف بشرتها أو بعضها، وهذا أيضًا من المفهوم الخاطئ للحجاب، فإن المرأة كلها عورة، فعن مُوَرِّقٍ، عنْ أبي الأحْوَص، عنْ عَبْدِ الله، عنِ النبيّ ﷺ قالَ: «**المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ غرِيبٌ.

وعليه فيجب عليها أن تستر عورتها ومفاتن بدنها عن النساء كذلك، وإنما يجوز لها أن تكشف ما لا فتنة معه غالبًا بين النساء؛ كالوجه والكفين وأطراف القدمين والعنق والشعر، أما داخلة البدن ومواطن الفتنة فلا يجوز لها كشف ذلك لأحد، ولا لأبويها وإخوانها[1] بل لا يجوز لها كشف

(١) أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي جملة من الآثار الدالة على نهي النساء عن لبس ما

مفاتنها وداخلة بدنها إلا لزوجها فقط، وما عدا ذلك فلا يجوز بحال؛ فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لاَ يَنْظُرُ الرّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرّجُلِ وَلاَ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرّجُلُ إِلَى الرّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي المَرْأَةُ إِلَى المَرْأَةِ فِي الثّوْبِ الوَاحِدِ**». أخرجه مسلم.

قال النووي في شرح هذا الحديث:

وأما أحكام الباب ففيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه، وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع، ونبه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى، وهذا التحريم في حق غير الأزواج والسادة. انتهى.

وقال ابن كثير في تفسير آية المحارم:

كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج. فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره، وقوله: ﴿أو نسائهن﴾ يعني: تظهر بزينتها أيضًا للنساء المسلمات، دون نساء أهل الذمة، لئلا تصفهن لرجالهن، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع؛ فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**» أخرجاه في «الصحيحين» عن ابن مسعود مرفوعًا. انتهى.

يحجم أعضاءهن أو يصف بشرتهن أمام المحارم سوى الزوج، وأنها مأمورة بستر مفاتنها حتى عن محارمها سوى الزوج.

ومن المفاهيم الخاطئة عند بعض النساء:في مفهوم الحجاب في الصلاة خاصة أن بعض النساء تظن أنها مأمورة بالتستر التام في الصلاة ماعدا الوجه والكفين فقط عند وجود الرجال الأجانب عنها، أما إذا كانت عند محارمها أو كانت وحدها فلها أن تصلي بما شاءت من الملابس، سواء كانت شفافة أو تبدي كثيرًا من بدنها أو شيئًا من العنق أو الساعدين أو القدمين والساقين، وكل هذا خطأ محض؛ فالمرأة مأمورة بستر جميع بدنها عدا الوجه والكفين ـ إلا إن كان هناك أجانب عنها من غير محارمها؛ فيلزمها أن تغطي وجهها وكفيها عنهم ـ سواء كانت وحدها أو عند محارمها؛ لأن العلة في تغطيتها لبدنها وشعرها ليس فقط لأجل الرجال الأجانب بل ولحق الله تعالى عليها في الصلاة، فإن ستر العورة شرط في صحة الصلاة، فإنه وإن لم يوجد أحد معها أو كانت بحضرة محارمها فيلزمها التستر التام؛ لحق الله تعالى في هذه الصلاة.@@@

ولا أنسى أن أعرج على البطلون أو البنطال هذا البلاء الخطير الذي حل بساحة نساء الإسلام اليوم وتسارع فيه فئام من العباد عياذا بالله من الخذلان، بل وللأسف الشديد جوزه بعض الدعاة بدعوى أنه من كالسراويل[١]، وهذا من أفسد القياس والعياذ بالله فإن البنطال فيه عدة محاذير:أولها:أنه من التشبه بالكاسيات العاريات[٢]، ثانيا:أنه من التشبة بالكافرات[٣]: ثالثا:أنه من التشبه بالفاسقات[١]، رابعا:أنه من التشبه

---

١ -

٢ -

٣ - جاء في كتاب رياض الصالحين للإمام النووي:(باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار: عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:"لا تأكلوا بالشمال

بالرجال[٢]

كما أن المصائب التي ابتليت بها الأمة في مقتل أن بعض الصالحات ظنت أن الحجاب يراد به إبداء زينة المرأة وذلك تسمعه من بعضهن ـ هداهن الله ـ حيث تقول: لا بد أن نظهر في أبهى صورة وأجمل حالة حتى يعلم الناس أن المرأة المحجبة أو المنتقبة ليست وسخة ولا مبتذلة بل هي أنيقة نظيفة مهندمة.

وهذه ورطة كبرى وقعت فيها هؤلاء النسوة حيث نسين أن الحجاب إنما وضع أصلاً لستر مفاتن المرأة ودرء الفتنة بها لا لتلفت الأنظار إليها وتفتن الآخرين بها. فلينتبه لهذا فإنه خلط آخر. والله أعلم.

❁❁❁

الخامس عشر
المنهج في الدعوة إلى الله

فإن الشيطان يأكل ويشرب بشماله".رواه مسلم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:"لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها" رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:"إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" متفق عليه. المراد خضاب شعر اللحية والرأس الأبيض بصفرة أو حمرة وأما السواد فمنهي عنه كما سنذكره في الباب بعده إن شاء الله تعالى)ا.هـ.

١ -

٢ - جاء في مسند احمد وسنن النسائي الكبرى وسنن أبي داود بسند جيد عن أبي هريرة قال:"لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسه المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل".

الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ من أشرف الأمور وأعظم العبادات وأجل المقامات التي أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بها وحث عليها عباده وبَيَّن أن نجاتهم وحصول الخيرات لهم، ودفع الشرور عنهم منوط بالقيام بواجب الدعوة إليه ـ تبارك وتعالى ـ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ۞ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران [١٠٤ـ ١٠٥] وبين أن في الدعوة إلى الله خيرية هذه الأمة، فقال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ آل عمران: [١١٠].

فالدعوة إلى الله تعالى إذن من أشرف الأمور حتى قال ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام:(فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم لهم، وقد أمر النبي بالتبليغ عنه ولو آية ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثا، **وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛** لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه)ا.هـ.

ولهذا لم يكل الله ـ تبارك وتعالى ـ تحديد المنهجية في الدعوة إليه إلى أهواء العباد وآرائهم ومقترحاتهم، بل تولى الله ـ تبارك وتعالى ـ بيان ذلك بنفسه ـ جل وعلا ـ بيانًا شافيًا كافيًا في كتابه العزيز وفي سنة نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ يوسف: [١٠٨] قال القرطبي:(أي قل: يا محمد هذه طريقي وسنتي ومنهاجي. وقال الطبري: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾

الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته، ﴿سَبِيلِي﴾ سبيلي وطريقتي ودعوتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بذلك، ويقين وعلم مني به، ﴿أَنَا﴾ أدعو إليه على بصيرة، أيضًا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وصدقني وآمن بي. ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ يقول له تعالى ذكره: وقل تنزيهًا لله وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم مني). انتهى.

فعلمنا من هذا يقينًا أن المنهج في الدعوة إليه ـ تبارك وتعالى ـ لابد أن يكون على هدى من الله تعالى، وعلم ويقين، وأن المقدم في ذلك هو الدعوة إلى التوحيد فالأهم ثم المهم، وهكذا تكون البصيرة، ومما يزيد ذلك بيانًا ووضوحًا ما جاء في «الصحيحين» عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار فقال: «**يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**» فقلت: يا رَسُول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**» وحديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رَسُول الله ﷺ ـ كلهم يرجو أن يعطاها ـ فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**» فقيل: يا رَسُول الله هو يشتكي عينيه. قال: «**فأرسلوا إليه**» فأتي به فبصق رَسُول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي ﷺ: يا رَسُول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا**

خير لك من حمر النعم» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. فانظر كيف بين النبي ﷺ في هذين الحديثين وغيرهما من الأحاديث أن أهم أمر يجب البداءة به هو التوحيد وبيان حقائقه ومقتضياته، وأن لا يعدل عن ذلك إلى شيء حتى يفهم العباد حقيقة التوحيد، وما هو حق الله ـ تبارك وتعالى ـ فيه إذ أن كل عمل لا يقبله الله تعالى إلا إذا كان خاليًا من الشرك بالله تعالى موافقًا لسنة النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف: [١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ۞ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الزمر [٦٥ـ ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ النساء [٤٨] ولكن ومع صراحة الأدلة في هذا الموضوع، إلا أن هناك طوائف من الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية والمشتغلة بالدعوة إلى الله تعالى تخالف هذا الأصل العظيم، وتبتكر مناهج من عند نفسها متذرعة بشيء من الآراء وأقوال بعض الكبراء في أنظارهم، أو لكونهم وجدوا نفعًا من جراء ذلك هنا أو هناك، فيجعلون وجود النفع هو المقياس في تحديد المنهج في الدعوة إلى الله تعالى، وكل هذا من المفهوم الخاطئ في منهجية الدعوة إلى الله تعالى، فالبعض يجعل شغله الشاغل إقامة دولة إسلامية تحكم بالكتاب والسنة، وهذا أمر محمود وعظيم وغاية جليلة وعبودية حقة لله الواحد القهار، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ هل هو بترك الناس يعجون في أنواع من الشرك والفساد الاعتقادي والأخلاقي والتفرغ للدخول في البرلمانات الكفرية وتجميع الأصوات من هنا وهناك للفوز بالانتخابات، ثم نقوم بعد ذلك ـ كما يقولون ـ بتعليم الناس وتثقيفهم ودعوتهم إلى تحقيق التوحيد وتنزيل الإسلام في واقع الحياة محتجين في ذلك بالمقولة المشهورة (يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)! لا شك أن هذا المفهوم مفهوم خاطئ وهو مخالف للطريقة التى بنى بها النبي ﷺ دولة الإسلام [ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا

بما صلح بها أولها] فلابد أن تكون البداية بدعوة الناس إلى معرفة الدين وحقائق الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ يبدأ الناس بذلك قبل كل شيء لعلمه ﷺ أن الدولة إنما تقوم على أفراد وجماعات، فإذا كان هؤلاء الأقوام لا يعون من الدين إلا رسمه فلن تقوم للدولة قائمة، بل أول من سيقضي عليها هم أهلها وأنصارها لغياب المعنى الصحيح للإسلام في نفوس هؤلاء الناس، ولهذا كان جميع الأنبياء والرسل يبدءون ببيان حقائق الدين ومبانيه العظام قبل دعوتهم إلى إقامة الدولة أو إلى شعائر الإسلام الأخرى، وهذا بخلاف ما جرى في كثير من البلدان التي وصل فيها الإسلاميون إلى سدة الحكم دون بذل جهد مع الشعوب في بيان الإسلام ومقاصده ومعانيه العظام لهم، حيث تفاجئوا بإعراض الناس عنهم، وواجهتهم مشاكل كثيرة لم يصمد الناس معهم فيها سواء على مستوى التحديات الدولية ـ من الكفار والمنافقين والعلمانيين ـ أو المشاكل الاقتصادية والداخلية التي تعاني منها كثير من الدول اليوم، فكانت النتيجة انحرافًا خطيرًا في المفاهيم حتى عند القائمين على الأمر، فعمدوا إلى الأدلة فلووها وإلى معاني الإسلام فشوهوها وعاشوا انهزامية منقطعة النظير، فتخلوا عن المبادئ الإسلامية الحقة كل هذا وغيره كثير فعلوه باسم الدين؛ طلبًا منهم لإرضاء الشعوب وإبقاءً على ماء الوجه بعد هذا الفشل الذريع في تقديم الإسلام والدعوة الإسلامية الصحيحة النظيفة وكسرًا لعداء الدول الكافرة والعلمانية من حولهم؛ لأنهم وجدوا أنفسهم يسبحون عكس التيار فلا شعب يصبر ويتحمل، ولا قدرة لديهم على مواجهة كل هذه التحديات لأن الكثير منهم لا حلم ولا علم، بل هي الآراء والاجتهادات المنكرة فتركوا في نهاية المطاف الحبل على الغارب وأخذوا يعملون على علمنة الإسلام بإلباسه سربالًا من الحضارة المادية الإلحادية المعاصرة ففشا الفساد الأخلاقي والسياسي والاقتصادي واستعلن الناس بالمعاصي ولا حسيب ولا رقيب من القائمين على الأمر، فالله المستعان، بل ومنهم من عملت الشعوب على إقصائه بعد فشله في توفير

الدنيا وحطامها؛ لأن الشعوب لا تعي من الدول والقائمين عليها سوى أن يقدموا لهم الحياة الرغيدة فحسب دون أدنى تضحيات منهم لأنهم لم يعلموهم سوى ذلك ولما وقع هذا الإقصاء في بعض الدول تحول أولئك المبعدون عن سدة الحكم إلى مقاتلين شرسين ضد الشعوب بحجة كفرهم فصار همُّ الواحد منهم سفك الدماء واستحلال الأموال ـ دون أدنى محاولة لبيان الحق بدليله وإقامة حجة الله على عباده ـ وما ذلك إلا ردة فعل لما حصل من قبل الشعوب تجاههم وهم في الحقيقة الذين جنوا على أنفسهم وجروا على شعوبهم هذه الويلات وما ذلك إلا لأن الشعوب لم تُهيأ لمثل هذا الأمر العظيم، الذي ترخص في سبيل إقامته الدنيا بأسرها، ولكن متى يكون هذا ؟ إنما يكون إذا عقل الناس حقيقة هذا الدين وما هو الواجب عليهم تجاه رب العالمين لأن فاقد الشيء لا يعطيه ومن لم يعرف عظمة الإسلام ومقدار التحديات التي تقابله من قبل أعوان الشياطين لم ولن يستطيع الصبر على ما يلاقيه في سبيل ذلك.

ولهذا اشتغل النبي ﷺ في بداية أمره بالدعوة الجادة، والتوعية التامة للعباد دون التفات إلى السلطة في ـ ذلك الوقت الراهن ـ لأن لكل مقام مقالًا، فلا الزمان ولا المكان يساعد على ذلك؛ فكرس كل جهوده في بيان حقائق هذا الدين العظيم، وكان ينهي أصحابه عن الاشتغال بغير ذلك، فإن الناس إذا عرفوا عظمة هذا الدين جادوا بكل شيء في سبيله، وهذا ما وقع فعلًا لما ترسخت قضية الإيمان في النفوس جادوا بالغالي والنفيس في سبيل هذا الدين، وتحملوا كل التبعات وقابلوا جميع التحديات بصدر رحب؛ لأنهم علموا حقيقة الأمر فلزموا ذلك وجاهدوا دونه حتى كان الواحد منهم يرد المال ولا يقبله، ويقول للنبي ﷺ: ما على هذا بايعتك إنما بايعتك على النصر أو الشهادة، بل ولربما تبرأ من الأهل والولد في سبيل ذلك، بل لربما قتل الواحد منهم ابنه أو أباه الكافر في ساحات الجهاد في سبيل الله.

ولما امتلأت نفوسهم بحب الله ورسوله صاروا يتسابقون في الاستجابة لأمر الله ورسوله ـ نساءً ورجالًا، صغارًا وكبارًا ـ ولو كان على حساب العادات والتقاليد، ولو كان بتسفيه أحلام الآباء والأجداد، ولو كان على خلاف ما تشتهيه النفوس وتدعو إليه الأهواء. هكذا تبنى المجتمعات وهكذا تقوم الدول[1] على قدم راسخة من الحق واليقين والإيمان، لا على إسلام هزيل في نفوس أصحابه ليس عند الواحد منهم أدنى استعداد أن يتحمل شيئًا ـ ولو يسيرًا ـ من أجل هذا الدين العظيم، بل الواقع يشهد أن الدين مهمش في حياة الكثيرين ـ إلا من رحم الله ـ فإن جاء الدين مع الدنيا فبها ونعمت، وإن عارض لقمة العيش أو عطل أو صرف عن اللهاث وراء حطام هذه الفانية فلا وألف لا، فكيف نطمع من أمثال هؤلاء أن يقيموا دولة الإسلام، أو أن يدافعوا عن هذا الدين بتقديم أموالهم، بل ودمائهم في سبيل نصرته، فالله المستعان.

والبعض الآخر يعتقد أن المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ لابد أن يكون بداية بفضائل الأعمال وبيان عظمة الرب ـ تبارك وتعالى ـ زعمًا منهم أن الدعوة إلى التوحيد ـ ابتداء ـ تفرق بين العباد، وأن الجهاد في سبيل ذلك يخالف الرحمة بالناس وهذا خلط آخر ولون آخر من غياب المفهوم

(١) وليس المقصود هنا أن يتنازل الحكام ـ الذين وصلوا إلى سُدَّةِ الحكم باسم الإسلام ـ عن الحكم، وإنما المطلوب منهم أن يصححوا خطأهم الفادح بالقيام بواجب التوعية وبث المبادئ الإسلامية عن طريق المشايخ وطلبة العلم ودعمهم في ذلك إما سرًّا أو علانية بحسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية مع حرص الولاة على التحلي بأخلاق الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا يكون المخرج من هذه الورطة، أما المداهنة والتلاعب بنصوص الشرع والتحايل عليها فلا يزيد الأمر إلا سوءًا والحال إلا فسادًا.

الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى فهل بُعثَ الأنبياء والمرسلون أول ما بعثوا بفضائل الأعمال وبيان عظمة الرب تبارك وتعالى، أم أنهم بعثوا بالتوحيد وبيان حقيقة الألوهية وجاهدوا في سبيل ذلك بالأموال والأنفس واللسان والسنان ؟ هذه هي دعوة الرسل قاطبة كما قال ـ تعالى ـ مبينًا أن كل رسول ونبي بعثه الله ـ تعالى ـ إلى قومه كان يأمرهم أول ما يأمرهم به بإفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة وأنهم كانوا يعملون على بيان المفهوم الصحيح لعبادة الله وحده لا شريك له ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف [٥٩] وقوله تعالى:﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف [٦٥] وقوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف [٧٣] وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف [٨٥] وهكذا كانت دعوة سائر الأنبياء والمرسلين بل هذا هو حقيقة دعوة الرسل وهو عين ما أمر الله ـ تعالى ـ به عباده وأراده منهم وهذا هو أعظم ما وقعت فيه الخصومة بين أتباع الرسل والمشركين والكافرين على مر العصور والأزمان كما قال تعالى:﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون [٣١، ٣٢] وقوله: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة [٣١] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات [٥٦] وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا

الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ البينة [٥] وغير هذا كثير كثير في الكتاب والسنة مما يبين أن أصل الدين ودعوة الرسل إنما قامت على الدعوة إلى التوحيد وأصالة توحيد الألوهية بل لم يَدْعُ النبي ﷺ إلى فضائل الأعمال إلا بعد أن ترسخت قضية الإيمان وتجلت حقيقة العبودية لما قدم المدينة مهاجرًا، فعن عَبْدِالله بنِ سَلاَم. قَالَ: «لما قَدِمَ رَسُول الله ﷺ ـ يَعْنِي المَدِينَةَ ـ انْجَفَلَ النّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ فجِئْتُ فِي النّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمّا اسْتَثْبَت وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوّلَ شَيْءٍ تَكَلّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النّاسُ! أَفْشُوا السّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطّعَامَ، وَصَلّوا وَالنّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنّة بِسَلاَمٍ**». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ صحيحٌ.

أفلا يكون البداءة بالدعوة إلى فضائل الإسلام من قلب المنهج النبوي في الدعوة إلى الله تعالى؟ بلى، والله ولكن الخلط الذي وقع في المفاهيم كان له أكبر الأثر في حصول هذه المخالفة الصريحة للكتاب والسنة وقياس الأمور بالأهواء والآراء عياذًا بالله من القياسات الباطلة والآراء المذمومة المخالفة للكتاب والسنة[1] ونعوذ بالله من الهوى الذي يعمي عن رؤية

---

(١) من المفيد التنبيه على أن مما غفل عنه كثير من العباد في هذا الزمان وهو يعد من أظهر شعائر الإسلام وأخص خصائص خيرية هذه الأمة ومن صلب وصميم الدعوة إلى الله **شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، كما قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.
ومن نافلة القول أن ننبه على خلل خطير وقع من بعض العباد تجاه الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وهو مسألة الانشغال بحال الداعية وأسلوبه عما معه من الحق

الحق ويصم عن سماعه.

ولقد تجاوز هذا الخلط في مفهوم منهج الرسل في الدعوة إلى الله وإقامة دولة الإسلام إلى خلط آخر وقع عند البعض بين المنهج الدعوي والوسيلة الدعوية، فظنوا أن المنهج يمكن تنويعه كما أن الوسائل يمكن تنويعها بما يناسب المقام مما يوافق الحق، ومن هنا وقع خلل واضح في الدعوة إلى الله، فوجد من يزعم في باب الوسائل الدعوية أنها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله وما ذلك إلا لأنهم لم يفرقوا بين الوسيلة والمنهج ـ فالله المستعان ـ كما أن آخرين فتحوا باب الوسائل الدعوية على مصراعيها فلا بأس عندهم أن يسلك الداعية كل وسيلة وكل طريق يوصل إلى المطلوب سواء من الحلال أو من الحرام وسواء كانت الوسيلة مخالفة للكتاب والسنة أو موافقة؛ المهم النتائج وهذا خلط من نوع آخر وفيه حظ من التشبه باليهود الذين يقولون: (إن الغاية تبرر الوسيلة) ولهذا وجدنا من يستعمل الوسائل المحرمة بأصل الشرع بل لربما وصلت إلى حد الكفر بالله ـ تعالى ـ وإقرار منهج الطواغيت والدخول تحته وفيه كالدخول في البرلمانات الكفرية ومنهم من يستعمل كبائر الذنوب في الدعوة إلى الله تعالى كتصوير ذوات الأرواح التي ورد في تحريمها أحاديث بأبلغ صيغ العموم وأشد أساليب الردع والتهديد والتحذير منها ومن استعمالها، ولكنها سنة الله التي لن تجد لها تبديلًا، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو**

المبين والقول الصالح الرشيد كما أن هناك من يقوم بانتقاد الدعاة والآمرين والناهين، ويتنقصهم في منهجهم وأسلوبهم في حين أنه بارد القلب ساكت اللسان تجاه المنكرات شيطان أخرس، فنقول لهؤلاء: هيا اذهبوا بحكمتكم وحنكتكم وأسلوبكم الباهر الفذ الفريد فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، أما أن تكسروا مجاديف الآمرين والناهين فالنقد كل يُحسِنه ولكن أين العمل؟!

سلكوا جحر ضب لسلكتموه». قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»! .

وهذا ما وقع فعلًا فأكثر أمة تستعمل التصاوير اليوم هم اليهود والنصارى حتى في وسائلهم الدعوية التي يدعون فيها إلى باطلهم وشركهم وضلالهم؛ ولهذا اتبعهم فئام من دعاة هذه الأمة مصداقًا لقول الصادق المصدوق، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فأخذوا يظهرون في القنوات الفضائية العفنة التي ما أنشئت إلا إرصادًا لمن حارب الله ورسوله وما أقامها الأعداء إلا للكيد للإسلام والمسلمين ونشر الرذيلة ومحاربة الفضيلة، وآخرون ترى صورهم في الجرائد والمجلات الهابطة العلمانية المنافقة التي ترجف في المدينة وتدعو إلى محاربة الدين والدعاة إليه، وآخرون يظهرون فيما يسمونه بالمجلات الإسلامية فليت شعري أي مصلحة في ظهور صورهم هناك؟ وهل الناس سيقرءون كلامهم أم سيتمعنون في صورهم؟ ولكن نخشى أن يكون ذلك من الرياء ودعوة الناس إلى معرفتهم وحب الشهرة والظهور والشرف ـ عياذًا بالله من محبطات الأعمال ـ قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ الزمر [٤٧] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُون ۞ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِط مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هود [١٥ ـ ١٦] وإننا حقيقة ننزه إخواننا الدعاة من ذلك بل ونحسن الظن فيهم وأنهم ما أرادوا إلا الخير، ولكننا نقول لهم مقولة ابن مسعود المشهورة: «كم من مريد للخير لم يصبه»[1] فإن ظهوركم في هذه المستنقعات الآسنة وسط هذا

(١) أخرجه الدارمي في سننه بسند جيد.

الركام الخبيث من الأغاني الماجنة والصور الخليعة والمسلسلات الهابطة والقصص الداعية إلى الرذيلة والنساء الكاسيات العاريات لهو من أعظم الفتنة للناس. فكم من بيت دخله «الدش» والتلفاز باسمكم أيها الدعاة ثم صار البيت خرابًا بعد ذلك.

ونحن نعلم أنكم لا تحلون ذلك ـ وهذا هو الظن بكم، رعاكم الله ـ ولكن هذا هو الواقع فاللهم لا تجعلنا فتنة للناس يا كريم.

وكم من الخلط الرهيب قد حصل من جراء ظهوركم هناك والعجيب أن تذبذب مواقفكم كان واضحًا جليًّا، فقد كنتم في أول الأمر محرمين، ثم أصبحتم مبررين، ثم في نهاية المطاف محللين نسأل الله العافية والسلامة ألا فاتقوا الله يا دعاة الإسلام في أمة الإسلام، واخرجوا من هذه الأماكن الآسنة ليحصل التزيل المأمور به في مثل قوله تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الفتح [٢٥]، وقوله تعالى:﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} النساء [١٤٠]، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال [٤٢]؛ لتكون مواقع الضلال واضحة لا خلط ولا لبس فيها، فإن هذا الخلط واللبس من أعظم ما يضلل العباد فالعوام غالبًا لا يميزون بل يأخذون بما يقوله الدعاة والوعاظ ويعملون بذلك؛ فكم من إنسان احتج على حل هذه الأجهزة المدمرة بظهور الدعاة فيها فلا حول

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ولهذا قال تعالى:﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ البقرة [٤٢].

ولا تقولوا: هل ندعها لأهل الباطل؟ فنقول: نعم دعوها فإنها منتنة؛ فهي الأليق بهم لا بكم فإن نافسوكم في منابر الحق والإيمان فلا تدعوها لهم بل موتوا دونها، فهاهو ذا نبيكم وحبيبكم ﷺ لم يفعل ذلك فما بالكم تفعلونه ألا يسعكم ما وسعه.

ولا تحتجوا بكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يتخلل سوق ذي المجاز يقول للناس: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[1]؛ لأن سوق ذي المجاز ما أنشئ لنشر الرذيلة والفاحشة ولم يكن مكانًا للباطل المحض بل إن العرب على جاهليتهم كانوا لا يفخرون بالرذيلة ولا يعقدون لها المجتمعات، ولكن كان سوقًا للبيع والشراء وإنشاد الشعر ومنه ما هو باطل قطعًا وفيه القصص والوعظ والإرشاد وذكر أيام الناس وأمثال العرب وحكمهم الشيء الكثير مما يصدق عليه أن الغالب عليه العقل والحكمة وإن كان لا يخلو من بعض الباطل كغيره من الأسواق.

ولكن لما أنشئ مسجد الضرار إرصادًا لمن حارب الله ورسوله أُمِرَ النبي ﷺ ألا يقوم فيه أبدًا.

فبالله عليكم هذه الأجهزة المدمرة بأيها أشبه: بسوق ذي المجاز أم بمسجد الضرار ؟ لا والله إنها أشد خطرًا وجرمًا من مسجد الضرار الذي أُمِرَ النبي ﷺ باعتزاله وعدم القيام فيه لا مصليًّا ولا خطيبًا ولا واعظًا.

ومن الدعاة من يستعمل الهزل والضحك والفكاهات في دعوته

---

(١) أخرجه أحمد والدارقطني وابن أبي شيبة وغيرهم من طرق، وبعضها فيه مقال، وأما إسناد أحمد من طريق شيبان عن أشعث قال: حدثني شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» فسنده جيد. والله أعلم.

ويساير الفساق في أقوالهم وبعض أفعالهم؛ زعمًا منه أن هذا مما يؤلف قلوبهم ويهديهم إلى الله ـ تعالى ـ وهذا باطل أيضًا فإن الدين عظيم ومقام الصدع به وتبليغه جد كبير ولهذا لم يؤثر عن أحد من الأنبياء ولا المرسلين أنهم استعملوا أسلوب الهزل والضحك في مقام الدعوة وتبليغ الدين كما يفعله التبليغيون اليوم بل قد ثبت عنهم خلاف ذلك تمامًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ البقرة [٦٧].

فهاهو موسى ـ عليه السلام ـ يستعظم أن يكون هازلًا أو مستهزئًا في مثل هذا المقام العظيم كما أن بني إسرائيل لم يقبلوا الاستهزاء في هذا المقام الكبير على عظيم جهلهم وظلمهم لأن هذا مما تمجه النفوس وتزدريه القلوب والعقول ولهذا قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي ليس هذا مقام ذلك. فبين موسى ـ عليه السلام ـ أنه ما كان ليهزأ ويهزل في مثل هذه المقامات العظيمة.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: **«صبحكم ومساكم»**. ويقول. **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**. ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى. ويقول: **«أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»**. أخرجه مسلم.

وإياكم يا دعاة الحق أن يحملكم تقاعس الناس عن قبول الحق واستبطاؤكم للنتائج أن تتبعوا سبيل الذين لا يعلمون فالأمر لله من قبل ومن بعد، والهادي هو الله وهو العليم الحكيم، فلنأخذ بالصراط المستقيم،

ولو طال بنا المقام فالأمر كما قال تعالى: ﴿•• ◆❒ ④❒○⇨✌◆② ⊞⊙☪❒① ✍ ✂ ➢ ✎ ♎ ❒↖✡ ♎ ❒↖③ •• ◆✖⇦ ♎ ➢ ✎ ✂﴾ الروم[٦٠].

هكذا كان هدي الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ فإن الدين لا يقوم على الهزل واللعب والضحك بل يبنى على الجد والحزم وبيان الحق بالأسلوب الصحيح المناسب للمقام مما يوافق هدي الرسل والسلف الصالحين. فدولة الإسلام وتثبيت الحق في الأرض لا تقوم أبدًا على أكتاف الهازلين والعابثين أهل الضحك والسخرية وكثرة المزاح والهزل فمن مسرحيات سموها إسلامية للأغراض الدعوية كما يزعمون إلى مهرجانات عابثة؛ الهزل فيها أكثر من الجد إلى مسلسلات قالوا عنها إنها إسلامية دعوية إلى قنوات فضائية إلى غير ذلك من العبث الذي تنزه عنه الشريعة الغراء والله المستعان والحق قد يكون مرًّا كالدواء تماما، ولكن لابد منه ليحصل الشفاء بإذن الله عز وجل.

وآخرون جنحوا إلى الطرف الآخر فحرموا بعض الوسائل الدعوية دون بينة ولا دليل فقط لكون الأمر لم يكن موجودًا من قبل في زمان النبي ﷺ وزمان السلف الصالح ورعًا منهم وخوفًا من كل ما هو جديد، وهذا خلط آخر والضابط في باب الوسائل الدعوية التي نتعبد الله ـ تعالى ـ بها هي ما قرره غير واحد من المحققين ونقل عليه الإجماع الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن (كل أمر انعقد سببه في زمان النبي ﷺ وأصحابه وقام المقتضي على فعله مع إمكانية الفعل ولم يفعلوه ففعله بدعة).

ومنهم من يستعمل الدفوف والأذكار المبتدعة كالصوفية وغيرهم بدعوى الدعوة إلى الله وعبادته وكل هذا باطل وضلال فلا إفراط ولا

تفريط والحق ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام والسلف الصالحون رحمهم الله تعالى فنسأل الله أن يرزقنا حبهم واقتفاء أثرهم. والله أعلم.

❁❁❁

السادس عشر: الرفق

الرفق خلق رفيع وتعامل جميل، متى ما وضع في محله، وقد حث الشارع عليه وأكد على ضرورته، وأن من حرم الرفق فقد حرم خيرًا كثيرًا وأنه مما يزين العبد، فعن عائشة ـ رَضِيَ الله عَنها ـ قالت: قال رَسُول الله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. زاد مسلم «**ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه**» وعنها ـ رَضِيَ الله عَنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**» أخرجه مُسلِمٌ. وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**» أخرجه مُسلِمٌ.

ولكن ما هو حقيقة هذا الرفق الذي أشاد الشارع به؟

فإن البعض يظن أن الرفق يعني اللين على كل حال، فتراه يفسر الرفق في جميع المواقف باللين وعليه يطالب باللين في جميع المسائل والمواقف والأوضاع، والمتأمل في الكتاب والسنة يعلم يقينا أن الرفق ليس هو اللين من كل وجه وأن اللين قد لا يكون رفقًا في بعض المواقف والمسائل فالمتأمل في مثل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ العلق [١٥] وقوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَك فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ القيامة [٣٤ ـ ٣٥] وقوله تعالى في حوار موسى مع فرعون

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾ الإسراء [١٠٢] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ التوبة [٧٣] والتحريم [٩] .

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهما ـ أن رَسُول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه، فطرحه وقال: **«يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده!»** فقيل للرجل بعدما ذهب رَسُول الله ﷺ: خذ خاتمك، انتفع به. قال: لا، والله لا آخذه أبدًا وقد طرحه رَسُول الله ﷺ! أخرجه مُسْلِمٌ.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ حين طوَّل الصلاة بالجماعة[1]: «**أفتَّانٌ أنْتَ يا مُعاذُ؟!**».

وعن المَعْرُوْرِ بن سويد قال: رأيت أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلًا على عهد رَسُول الله ﷺ فعيره بأمه، فقال النبي ﷺ: **«إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن**

(١) إنما أنكر النبي ﷺ على معاذ تطويله في الصلاة لأن الصلاة كانت عشاءً أو مغربًا على اختلاف الروايات، ولأن المشروع في العشاء القراءة بأواسط المفصل، في حين أن معاذًا رضي الله عنه قرأ بالبقرة، فلهذا أنكر عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وأما التطويل في الفجر والظهر وأحيانًا في المغرب فكل ذلك في أكثر الأحيان من هدي النبي عليه الصلاة والسلام، وفاعله مصيب مأجور ولا يجوز الإنكار عليه بحال. والله أعلم.

كلفتموهم فأعينوهم» مُتَّفقٌ عَلَيهِ.

وغير هذا كثير في الكتاب والسنة مما هو من الشدة، وليس من اللين مما يؤكد أن الفهم السائد عند البعض أن الرفق هو اللين دائمًا، هو مفهوم خاطئ وأن المفهوم الصحيح للرفق هو فعل ما هو الأرفق بحال المدعو مما يناسب المقام الدعوي، فقد تكون الشدة تارة رفقًا كما قد يكون اللين تارة أخرى رفقًا فلكل مقام مقال، فلابد من التعامل مع المواقف والأحداث كل بحسبه مع مراعاة المصالح، والمفاسد، وأحوال الأمة، والراجح من المرجوح، والفاضل من المفضول، وهكذا على ضوء البصيرة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف [١٠٨].

❁❁❁

السابع عشر

مقياس العلم [العالم والعابد]

إن التميز بين العالم والعابد والواعظ والخطيب والإمام والقارئ والراقي أمر مهم للغاية لوجود البون الشاسع بين هؤلاء وبين العالم الذي يفتي ويتكلم في أمور العامة وفق الكتاب والسنة مع التقوى والورع وإن المتأمل في واقع الناس يعلم يقينًا أن المفهوم السائد عند كثير من العباد أن العالم هو الخطيب المشهور أو الواعظ المعروف أو العابد الزاهد فمقياس العلم عند البعض هو الشهرة وذيوع الصيت ولهذا ما أن يشتهر واعظ أو محاضر أو قارئ أو خطيب أو راق حتى يبادر الناس إلى جعله بمنزلة العالم فيتسارعون إليهم في استفتائهم، ويعاملونهم معاملة العلماء الراسخين، وهذا خطأ كبير وخلط رهيب وقد بين الله ـ جل وعلا ـ في كتابه العزيز أهمية التفريق بين العلماء وما سواهم فخصهم ـ جل وعلا ـ برفعة المنزلة وخولهم مقام الإفتاء والتوقيع عن رب العالمين قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة [١١] وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ النحل [٤٣] وبين النبي ﷺ في سنته المطهرة خطر الخلط بين العالم وغيره من العُبَّاد والوعاظ ونحوهم وأن في عدم معرفة هذا الفرق خطرًا على المجتمع بأسره لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح ويهدم أكثر مما يبني؛ فعَنْ أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ـ رضي الله عنه ـ: **أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل**

قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاه ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة م»

قال قتادة فقال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره

[ش (نصف) أي بلغ نصفها (نأى) أي نهض ويجوز تقديم الألف على الهمزة وعكسه]» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فانظروا كيف انخدع الناس بالشهرة والصيت الذي كان لهذا الراهب حتى ظنوه أعلم أهل زمانه مع أنه من أجهل الناس وكيف خفي عليهم أمر ذلك العالم الراسخ لكونه مغمورًا لا يعرف، وانظروا كيف جنى الجهل على ذلك الراهب وكيف نجا هذا السائل بعلم هذا العالم الرباني، وعليه فليس كل من لبس العباءة وأعفى لحيته وقصر ثيابه أو تقلد منصبا ذا وجاهة ومكانة صار عالما، وليس كل من أوتي بيانا وحسن كتابة وصياغة للعبارات يكون عالما، وليس كل من اشتهر بالزهد وقيام الليل وصيام النهار يكون عالما، وليس كل من ظهر عبر الشاشات والجرائد والمجلات كان عالما، بل العالم شيء فوق ذلك كله فالعلم شأنه عظيم وخطره جسيم فمتى خلط الناس بين العالم وبين

غيره ظهر ما خافه علينا النبي ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ الله عَنهُما قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

فعلمنا من هنا خطورة هذا الخلط الرهيب، فالعالم إذن هو الذي يفتي عن علم وتقًى وورع وفق الكتاب، والسنة لا وفق الآراء، والقياسات الفاسدة، العالم هو الذي متى ما سألته عن مسألة أجاب معتمدًا على الدليل، والفهم العميق على فهم السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ فيحفظ في كل مسألة دليلها الصحيح، وفهمها الدقيق فلا تراه متعصبًا للمذاهب ولا لأقوال الرجال التي تخالف الكتاب والسنة فالمعظَّم عنده هو الحق، فالحق ضالته، أنى وجدها، ركن إليها، وعمل بها، وأفتى على وفقها ولو خالف في ذلك من خالف، وهو في ذلك كله يحذر كل الحذر أن يقول في مسألة بغير علم، ويحرص كل الحرص على ألا يقول على الله إلا الحق كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ فاطر: [٢٨] هذا هو العالم الرباني الذي ينفع الله ـ تعالى ـ به ويدفع. والله أعلم.

❁❁❁

الثامن عشر

الغلو والتشدد والتطرف والإرهاب

الغلو والتشدد والتطرف كلمات مطاطية فضفاضة، أصبحنا نسمعها اليوم على ألسنة كثير من الناس، بل وعبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، بل أصبحت عبارة يرددها كثير من السياسيين هنا وهناك يصمون بها من يشاءون على حسب فهمهم للغلو والتشدد والإرهاب، بل حتى اليهود والنصارى يرمون بعضهم البعض بهذه الأوصاف، بل وفيما بينهم يرمون بعض طوائفهم بهذا الغلو والتشدد والتطرف والإرهاب، فما هو المعنى الحقيقي للغلو والتشدد وسط هذا الركام الهائل والتوسع الكبير في استعمال هذا المصطلح؟ وما المعيار الحقيقي لضبط هذه المسألة العظيمة التي ضلت فيها أفهام وزلت فيها أقدام ؟

إن المعنى الحقيقي لهذه الكلمات لا يمكن أخذه بحال من الممارسات الخاطئة لهذه المفاهيم هنا أوهناك، لأن المتأمل في حال من يستعملون هذه الكلمات يرى خللًا واضحا وتباينا كبيرا في استعمالها مما يؤكد أن الهوى والشيطان هو الذي يحرك هؤلاء لوصم من يرونهم مخالفين لأهوائهم وشياطينهم بمثل هذه الكلمات لتنفير الناس عنهم والحط من قدرهم، أو لتبرير المواقف ضدهم وتمرير الشائعات وترويج الباطل حولهم ليتسنى لهم البطش بمن يشاءون والفتك بكل من تسول له نفسه بمخالفة أهواء الكبراء وشياطينهم، وهذا يظهر

واضحا جليًّا في مواقفهم وتعاملهم مع الناس؛ فمتشدد اليوم هو صديق الغد والعكس كذلك، والغالي الإرهابي المتطرف اليوم لربما صار هو الحمل الوديع في مستقبل الأيام وهكذا، فقائمة الغلو والتشدد تتغير حسب المواقف والأحداث فليس هناك معيار ثابت تنضبط فيه هذه المسائل بل ما هو إلا اتباع الهوى والنفس والشيطان، ولهذا ترى الكيل بمكيالين والوزن بميزانين واضحا جليًّا لكل من له مسكة عقل أو أدنى راحة فهم ونظر صحيح لما يجري من الأحداث، فلماذا يكون الظلم تارة عدلا والعدل ظلما؟! ولماذا القتل هنا إنصافا وقصاصا وهناك جريمة وإرهابا مع أن الحالين واحدة والمواقف متشابهة؟!

ولماذا يكون لبس العباءة وإعفاء اللحية تدينًا محمودًا إذا كان من يهودي أو نصراني في حين أنه يكون إرهابًا وتخلفًا ورجعية وتشويهًا إذا كان من المسلم؟! ولماذا يكون لباس الحشمة وستر المفاتن عند المرأة شعارًا للصلاح والتقى والتدين إذا كان من يهودية أو نصرانية في حين أنه يكون تطرفًا وتشويهًا وهضمًا لحقوق المرأة وظلمًا لها إذا جاء هذا من المسلمة.

فإذا أراد المسلم الاستقامة واتباع هدي النبي ﷺ ذموه رموه بالعظائم، وإذا أرادت المرأة المسلمة الحجاب والعفة مقتوها ونفروا منها وحذروا من ذلك أشد التحذير، في حين أنهم يثنون على المتهتك المُنحَلِّ المُشيع للفساد والإفساد من الذكور والإناث!فهل هذا يعقل أو يقبل إلا في زمان عم فيه الظلم وطم وأصبحت العصا بيد القوي الفاجر الظالم وساد حكم الغاب فالقوي يأكل الضعيف؟ ومتى ما قام الضعيف ليشتكي أو يأخذ نزرًا يسيرًا من حقه وَلْوَلُوا حوله وصاحوا وملئوا الدنيا ضجيجًا وأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ورموه بالعظائم

وكان هو الإرهابي المتطرف الغالي المتشدد فما أعجب هذا الزمان بل ما أعجب هؤلاء الأقوام.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر

ومن ناحية أخرى ترى أقواما إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم رموا الداعي لهم بسوء الطوية وفساد النية وإرادة الإفساد في الأرض وتحريك الفتن الخامدة وعدم الإحاطة بفقه الواقع وتغير الأحوال والأحداث، وبالتالي يصمونه بالتشدد والتطرف تنفيرا للعباد من حوله وإسقاطا لفكره الصائب بين الناس.

وآخرون إذا أمرتهم بترك المنكرات والبعد عن المحرمات رموا الداعي لهم بالتشدد والغلو في الدين وعدم الرفق واللين، هذا وغيره كثير من الممارسات الخاطئة لهذه الألفاظ يدعونا إلى الرجوع الصادق إلى المعنى الصحيح لحقيقة هذه الألفاظ وفقا للمعايير الحقة من المراجع المعصومة التي لا يأتيها الباطل بين يديها ولا من خلفها ولا تتبع أهواء البشر ولا تخضع لمرادات الكبراء بل تقصد الحق وتبينه بالعدل والإنصاف، وليس ثمة كذلك سوى الوحيين، الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المطهرة على فهم سلف الأمة الأخيار الأطهار لا على فهم المبطلين والمفسدين في الأرض.

ومن هنا سيكون حديثنا عن هذه المعاني وتلك الألفاظ منضبطا بنور الوحيين فلا نعرج على غيرهما إلا ما كان تبعا لهما من الإجماع الصحيح أو القياس المعتبر على فهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

لقد جاء الشرع المطهر المنزل ببيان شاف وكاف لكل من رضي بالله تعالى ربًّا وبالإسلام العظيم دينا وبمحمد ﷺ إماما وقائدا ورسولا لهذه القضية الحساسة الخطيرة التي كم سفكت من الدماء وهتكت من الأعراض وبددت من الأموال والمكتسبات ومقدرات الشعوب من

جراء عبث العابثين بها من طواغيت العالم اليوم، وفي كل زمان تسلط فيه أمثال هؤلاء على رقاب العباد والبلاد.

حيث بين الشرع المطهر أن الغلو والتشدد والتطرف له طرفان وأن كل من قصد أحد طرفيه فإنه أولى الناس بوصف الغلو والتشدد والتنطع، وهذان الطرفان هما الإفراط والتفريط. فكل من غلا وتشدد وتنطع بالزيادة على المشروع فهو غال متشدد متطرف لأنه متجاوز للحد المشروع بالزيادة فيه ما ليس منه، كما أن كل من غلا وتشدد وتنطع بالنقصان هو الآخر غال ومتشدد ومتنطع لأنه مقصر عن الحد المشروع.

وكلا قصدي طرف الأمور ذميم وقد جاء الإسلام بالعدل والوسطية فلا إفراط ولا تفريط ولا وكس ولا شطط.

فمثلا يمكننا أن نصف المسبل في ثيابه بالغلو والتطرف لأنه غلا في مخالفة السنة وركب كبيرة من كبائر الذنوب كما أننا نصف من جعل ثوبه على ركبته بالتنطع والغلو أيضا، ولكننا لا يمكننا بحال أن نصف بالغلو والتنطع والتشدد الذي جعل ثوبه وإزاره من نصف ساقه إلى ما فوق الكعبين لأنه عامل بما فرضه الله عليه ومتبع لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

كما أن الذي يمتنع عن مصافحة النساء الأجنبيات عنه أي من غير المحارم لا يمكن بحال أن نصفه بالغلو والتشدد، ولكن نصف المصافح للنساء الأجنبيات بالغلو والتفريط.

كما أن الذي ينادي بمخالفة الكفار وعدم التشبه بهم وبغضهم والعمل على جهادهم بنوعي الجهاد: جهاد الدفع لاستخلاص بلاد المسلمين من أيدي الغاصبين والانتصار والانتقام للمظلومين والمستضعفين من المؤمنين وجهاد الطلب بالضوابط الشرعية لفتح بلاد الله ليسمع ويعلم عباد الله دين الله الحق فيدخلوا في دين الله

أفواجا حتى لا يكون سلطان في الأرض إلا سلطان الله وحتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى مع دعوتهم إلى الحق وبيانه لهم متبعين في ذلك الحقائق الجهادية الثلاثة المقررة في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، ألا وهي: إما الإسلام أو الجزية أو السيف، نعم هذه حقائق الإسلام التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تقبل مساومات المبطلين، وليظهرن الله دينه ولو بعد حين.

أقول: من دعا إلى هذه المقامات الكبار العالية لا يمكن أن نصفه بالغلو والتطرف، لأنه فاعل عين مراد الله عز وجل فهو يقوم بِشَعِيرَةٍ من أعظم الشَّعائِر وفريضة من أهم الفرائض ألا وهي الجهاد في سبيل الله الذي ما زال أعداء الله يحرصون على إطفاء نوره وناره والقضاء عليه ومحاصرته، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون والمبطلون كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ التوبة [٣٢ ـ ٣٣].

ولكننا في المقابل يمكننا أن نصف المتخاذل عن ذلك أو الذي يجامل على حساب الدين أو الذي يتزلف للكفار والمشركين يمكن أن نصمه بالغلو والتنطع لأنه غلا وتنطع في مخالفة ما أراده الله تعالى وأمر به في كتابه العزيز وسنة نبيه المطهرة وعلى هذا فقس، فكل من أمر بشيء أو نهى عن شيء يؤيده الدليل الصحيح من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المطهرة فهو المنصف القائم بأمر الله تبارك وتعالى وهو أبعد الناس عن التطرف والغلو والتشدد والتنطع، وفي نفس الوقت كل من زاد على المشروع وابتدع في الدين وأدخل فيه ما ليس منه فهو أحق بوصف التنطع

والتشدد والتطرف، كما أن الذي يخالف الشرع المنزل وينقص منه ويركب المعاصي والمنكرات هو الآخر متنطع متشدد غال في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ النحل [٧٦] وقوله تعالى:﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ النور [٤٨: ٥٠]. وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّن الكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ ۞ وَالله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِالله وَلِيًّا وَكَفَى بِالله نَصِيرًا ۞ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُون سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِم وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُون إِلاَّ قَلِيلًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْر الله مَفْعُولًا ۞ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُون ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِب وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُون لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلًا ۞ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله وَمَن يَلْعَنِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ النساء [٤٤: ٥٢].

ولهذا مدح الله جل وعلا أقواما فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ النور [٥١]، هذا هو المعيار الدقيق والصحيح لضبط هذه المعاني وتلك الألفاظ التي سارت بها الركبان دونما روية ولا تعقل ولا نظر في حقائق الأمور بل ما هو إلا اتباع الهوى والشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾، المؤمنون [٧١]، فلا تُعْرَفُ معاني هذه الألفاظ عبر شاشات الإعلام ووسائله المقروءة والمسموعة، بل من كتاب الله تعالى وسنة رسوله الصحيحة على فهم سلف الأمة الأخيار الأطهار.والله والمستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله أعلم

❁❁❁

التاسع عشر: العادات والتقاليد

إن المتأمل في أحوال بعض المجتمعات الإسلامية يجد أنهم يقدسون عاداتهم وتقاليدهم إلى حدٍّ وصلوا فيه إلى رد التعاليم الربانية وتمرير عاداتهم وتقاليدهم ولو على حساب الدين، وهذا من الفهم الخاطئ لحقيقة العادات والتقاليد والسبب في الوقوع في هذا الفهم المغلوط هو أن هؤلاء النفر لم يفقهوا حقيقة معنى لا إله إلا الله، والتي معناها لا معبود بحق إلا الله وأن الحياة والممات كلها لابد أن تكون منخرطة في سلك العبودية العامة التامة لله الواحد القهار، كما أن من الأسباب التي تسببت في هذا المفهوم الفاسد هو الفهم المغلوط لمعنى قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ الأعراف [١٩٩] فظنوا أن العادات والتقاليد محكمة من كل وجه حتى وإن خالفت الدين الحق ومن هنا أُتِيَ القوم.

والصواب في هذه المسألة الهامة الكبيرة: أن يعلم العباد كلهم أن لله تعالى حقًّا عليهم في كل صغير وكبير من حياتهم، فالله تعالى لم يخلقهم عبثا ولن يتركهم سدى وأن الواجب عليهم أن يطوِّعوا واقعهم وعاداتهم وتقاليدهم وفق الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة وأن يكون الشرع هو الحاكم على العادات والتقاليد وليس العكس كما هو واقع بعض العباد.

فالعادات والتقاليد الأصل فيها الحل والجواز إلا إذا خالفت الشرع المطهر فإن خالفته وجب طرحها وتركها والتحذير منها

وتغييرها في التوِّ واللحظة عملًا بقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾الذاريات [٥٦] وفرارًا مما وقع فيه أهل الجاهلية الأولى الذين فسد تصورهم لهذه الحقيقة الإسلامية فقدموا عاداتهم وتقاليدهم وموروثات الآباء والأجداد على كتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى عنهم ذامًّا إياهم وموبخا لهم ومقرعا لعقولهم ومسفها أحلامهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۞وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۞ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الزخرف [٢٢ـ ٢٥].

ومن هنا نعلم يقينا أن الدعوة إلى تحكيم العادات والتقاليد على الشرع المطهر وتمرير أعراف العباد المخالفة للشرع وجعلها دستورا للناس هو من قبيل الحكم بغير ما أنزل الله، وهو من صنيع أهل الجاهلية الذين بدلوا نعمة الله كفرا فكانت الهلكة والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ ۞ وَجَعَلُواْ لله أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ إبراهيم: [٢٨ ـ ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ النحل [١١٢ ـ ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود [٨٣].@@@

❁❁❁

العشرون

مفهوم المفاضلة بين العباد والأولاد

إن المتأمل في واقع بعض العباد يجد أنهم يمايزون ويفاضلون بين الناس أفرادًا وجماعات دولًا ومجتمعات بحسب ما معهم من حطام الحياة الدنيا؛ من أموالها ومناصبها وشهاداتها وتقدمها الحضاري والتكنولوجي، وكذلك نرى بعض المربين والمربيات يمايزون بين أولادهم على حسب تفوقهم الدراسي فالحاصل على الدرجات الكبيرة والمراكز المتقدمة هو الأفضل وهو المقدم وهو الأذكى وهو الأحسن.

والمتأمل في نصوص الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة يعلم يقينا أن الإسلام لم يعول كثيرا في تقييم العباد وتمييزهم على أساس هذه المواصفات والمقاييس البشرية الخاطئة بل نجد أن المعول الأكبر في دين الله تعالى على مبدأ تحقيق التقوى في دنيا الواقع ولهذا لما ذكر المولى عز وجل خلقه للعباد ذكر مباشرة المقياس الحق في تفاضلهم وتمايزهم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات [١٣].

ولهذا بين الله تعالى أنه لمن السفه وقلة الحكم أن يسوي العباد بين الأبرار والفجار والأخيار والأشرار والمؤمنين والكفار على مبدأ الحياة الدنيا وعرضها الزائل فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ۝ أَمْ نَجْعَلُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ﴾ ص [٢٧ـ ٢٨]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ الجاثية [٢١] وقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يونس [٣٥] وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ۞مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۞ سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ۞أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ القلم: [٣٤، ٤١]. فالمؤمنون خير من الكفار والأبرار خير من الفجار والمتقون خير من الأشرار فلا سواء فإن الحكيم العليم لا يسوي بين المتباينين ولا يمايز إلا بالحق والتقوى.

فالكافر مهما بلغ من العلم الدنيوي يبقى من أخبث خلق الله، ومن أغبى خلق الله ومن أجهل خلق الله، والواحد البسيط العامي من الموحدين خير من ملء الأرض من أمثال هذا الكافر الخبيث الذي سيشهد على نفسه يوم القيامة بالخبل والجنون والضلال المبين، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۞ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ الله هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۞ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ۞ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۞ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۞ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: [٩٠: ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: [١٠] وهم عند الله أردى وأضل من البهائم سبيلًا كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنفال [٢١ ـ ٢٣] وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال [٥٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ الأعراف [١٧٩] وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان [٤٣ ـ ٤٤].

فالمعيار إذن معيار تقى وهدى ليس معيار حياة دنيا ولهذا قال النبي ﷺ كما في صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا»**. فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما رأيك في هذا»**. فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**.

وعليه فنقول أيضا: يا معاشر المربين والمربيات اجعلوا مبدأكم في تقييم أولادكم كذلك على مبدأ التقوى فهذا هو المعيار الرباني الذي لافوقه شيء ولا أحسن منه إذ :﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت/ ٤٢]، فإن لم تفعلوا فقد انحرفتم عن جادة الصراط، وعرضتم أنفسكم للظلم.

وكم من الآباء فقدوا أبناءهم من جراء هذه المعايير الفاسدة بحيث يكون الابن من المصلين المتقين ولكنه لم يُفْتَح عليه في النواحي الدراسية فيغضب عليه أهله ويمارسون عليه ألوانا من الضغوط الحسية والمعنوية في حين أنه لم يرتكب جرما يستوجب ذلك، فالناس مراتب ويتفاوتون في ذلك تفاوتا عظيما، وإنما المعول على التقوى.

هل هو من المتقين أم لا؟. ولهذا تأمل ماذا قال تعالى لنوح عليه السلام لما قال: ﴿إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي﴾ هود [٤٥] لم يقبل الله منه ذلك كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾ هود [٤٥ ـ ٤٧].

فليكن مبدؤنا في تعاملنا مع أولادنا بل ومع الناس أجمعين على هذا المبدأ الشرعي ألا وهو التقوى، فمن كان من المتقين وجب إكرامه ولو كان من أقل الناس حظًّا من عرض الحياة الدنيا ومن كان فاجرا وجب مقته بقدر ما فيه من الفجور وإن كان كافرا وجبت معاداته وازدراؤه وبغضه والإغلاظ عليه كل بحسبه، بحسب الضوابط الشرعية في معاملة الكافرين لا وكس ولا شطط.

وكذلك الدول إنما تقاس بقدر ما فيها من تحقيقها لمبدأ العبودية لله الواحد القهار وبقدر ما فيها من طاعة الله، فالديار المؤمنة المتقية هي العامرة حقًّا وما عداها فخراب وضياع ودمار ولو بعد حين وكل بحسبه وتأمل ما قاله الله تعالى عن أمم بلغت في التقدم المادي شأوا

كبيرا فدمرهم الله من جراء كفرهم وعصيانهم والقرآن مليء بذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ ۞ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۞ الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾ الفجر [٦ ـ ١٤] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئًا وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۞ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَالله شَدِيدُ العِقَابِ ۞ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ آل عمران [١٠ ـ ١٢] وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ الأنعام:[٦]، ومثل هذا كثير جدًّا في القرآن العظيم.

فإياك أخي أن تغتر ببهرج المبطلين وزيفهم وزخرف دنياهم فعما قليل ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ المؤمنون [٤٠]، ولو كانت الدنيا مقياسا لما سقى الله تعالى منها الكافر شربة ماء ولهذا قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۞ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ الإسراء [١٨ ـ ٢٢].

ولولا أن يفتتن الناس بحال الكافرين في الدنيا لأعطاهم الله متاع الحياة الدنيا ولكن من رحمته تعالى أنه لم يفعل ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ ۞ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف [٣٣ ـ ٣٧] فالأمر كما قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُول الله ﷺ: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**.

❁❁❁

الحادي والعشرون

الاغترار بالطاعة لفعل المعصية

إن بعض العباد يغتر بما وفقه الله تعالى إليه من طاعته سبحانه فيجعل من كثرة طاعته ذريعة لمقارفة بعض المحرمات فإذا قيل له اتق الله قال: أنا خير من كثير من العباد أنا أصلي وأصوم الإثنين والخميس أنا كذا أنا كذا وهذا من المفاهيم الخاطئة التي درج عليها كثير من العباد إلا من رحم الله.

وما درى هذا المسكين أن هذا من استدراج الشياطين ومكرهم بالعباد وهذه من وسائل إبليس التي يلبس بها على العباد فإن الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه لا يعبأ بنا أن نهلك سواء في إفراط أو تفريط، ولهذا حذرنا الله تعالى من حبائل الشيطان ووسائله حيث سماها العليم الخبير بخطوات الشيطان فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلًا طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة [٢٠٨ ـ ٢٠٩] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة:[٢٠٨-٢٠٩]، وقال: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الأنعام[١٤٢].

ومن أخطر وسائله وحبائله وخطواته التي يهلك بها العباد أن يربط الطاعة بالطاعة والطاعة بالمعصية والمعصية بالمعصية، وإليك بيان ذلك

بالأمثلة:

أما ربطه الطاعة بالطاعة فذلك بأن يعظم بعض الطاعات على حساب الطاعات الأخرى، فإذا أراد العبد أن يقوم ببعض الطاعات زَهَّدَهُ فيها وقال له: ألا يكفيك كذا وكذا من الطاعات العظيمة التي تقوم بها فأنت على خير عظيم وأنت قائم بفرائض الدين ونحو ذلك من الوساوس الشيطانية نعوذ بالله منها فيخذله بذلك عن مزيد من الطاعات والقربات، وما علم العبد أنه بحاجة إلى كل حسنة ليأخذها معه زادًا إلى يوم المعاد وأنه لا يدري هل تقبل الله منه طاعاته أم لا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ المؤمنون [٦٠] قال ابن كثير: أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله: يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «**لا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ**» وأخرجه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم**». ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾.ا.هـ.

أما رَبْطُهُ الطاعة بالمعصية فهو كأن يقول للعبد الذي همَّ بفعل معصية من المعاصي وحالت دون ذلك نفسه اللوامة واستيقظ داعي الإيمان في قلبه فوثب يحذره ويردعه عن الوقوع في العصيان فيأتيه إبليس فيقول له أنت صاحب الطاعات العظيمة والحسنات الكثيرة وماذا يضرك إن وقعت في هذه المعصية وقد علمت أن الله غفور رحيم وأن عصاة الموحدين مآلهم حتما إلى جنات النعيم؟! وأن هذه المعصية من الصغائر وهي لا شك أنها ستنغمر في بحر حسناتك الغزيرة الكثيرة وهكذا لا يزال به حتى يهلكه، أو أن يستعصم العبد بالله العظيم فينجو من خطوات

الشياطين نعوذ بالله العظيم منهم. وما علم العبد أن الواجب عليه أن لا يركن إلى الشيطان مطلقا وأن لا يقع في العصيان أبدا، فإن زلت قدمه فعليه أن يبادر إلى التوبة النصوح وأن عليه ألا ينظر إلى صغر المعصية ولكن عليه أن يتذكر عظمة من يريد أن يعصي أمره وهو الله رب العالمين وأن يشكر نعمة الله عليه وأن لايبدل ولا يغير حتى لا يغير الله عليه.

وأما ربطه المعصية بالمعصية فمثاله أن يوقع الشيطان العبد في شيء من المعاصي من الصغائر والكبائر ثم يستدرجه إلى المزيد منها فتأبى نفس العبد وتتحرج من الوقوع في المعصية فيرقق هذه بتلك فيقول له أنت تفعل كذا وكذا من المعاصي فلم لا تفعل هذه أيضا؟ بمعنى أنك قد وقعت فيما هو أشنع من هذه فهل يسوغ أن تتورع عن هذه؟! وهكذا حتى يهلكه.والعياذ بالله.

وما علم العبد أن الواجب عليه أن لا يتطاول في العصيان وأن عليه أن يتوب منها جميعًا ومهما وجد سبيلًا إلى التوبة منها أو من بعضها فعليه أن يبادر إليها قبل أن تحجب عنه التوبة والعياذ بالله، وعليه أن يعلم أن وقوعه في ثلاث معاص ليس كوقوعه في معصيتين، فالواجب عليه أن يسعى في تقليل المعاصي وأن لا يركن إلى الشيطان الذي يطمع منه في المزيد من العصيان لعلمه أن المعاصي بريد الكفر فيأخذه بالخطوات خطوة خطوة حتى يوبقه في الكبائر ثم في الكفر أو الشرك والعياذ بالله. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَن يَشَاء وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ النور [٢١].

وقد أخرج أسد بن موسى في «الزهد» عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن الرجل يعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقًا حتى يلقى الله آمنا» ولهذا قال سعيد بن جبير: «إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار

وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ويعمل السيئة فلا يزال يستغفر الله منها».اهـ. وذلك بأن تكون طاعته نصب عينه فيتعاظمها في نفسه ويدلي بها على ربه ويمن بها عليه فلا يزال كذلك حتى يحبط الله عمله فتكون تلك الحسنة سببا لدخوله النار، وأما الآخر فلا يزال ذنبه بين عينيه ماثلا في قلبه فيستغفر الله ويتوب إليه منه ولا يزال يعمل أعمالًا صالحة رجاء أن يغفر الله له وأن يتوب عليه فلا يزال كذلك حتى يتغمده الله بواسع رحمته فيدخله جنته... نسأل الله من فضله العظيم.

❁❁❁

الثاني والعشرون

مفهوم الشهادة في سبيل الله

إن هذا المفهوم قد اعتراه في هذه الأزمنة المتأخرة ـ أزمنة العجائب والفتن التي تموج موج البحر ـ خلل واضح في بعض مجتمعات المسلمين ومن جراء هذا الخلل الفظيع أصبحنا نرى ونسمع من يقول عن اللاعب أو المشجع الذي يموت في الملعب أو على المدرجات بأنه شهيد الكرة أو شهيد الملاعب، وتجد آخرين يسمون الفنان أو الفنانة من المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات إذا مات الواحد منهم على عتبة الفن الفاجرة سموه شهيد الفن، بل ومن أعظم العجائب والتي لا ينتهي منها العجب أن تجد من المسلمين من يسمي الكافرين بل ورءوس الكفر والطغيان والملاحدة والمحاربة لله ولرسوله يسمونهم بالشهيد فتارة يقولون شهيد السلام وتارة يقولون: شهيد كذا وكذا عياذا بالله من هذا الضلال العظيم.

فأقول إن لفظ الشهادة في سبيل الله لفظ شرعي بحت استعمله الشارع لوصف الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فعَنْ أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ﷺ قال:سئل رَسُول الله ﷺ عَنْ الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رَسُول الله ﷺ:**«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وعنه ﷺ أن أعرابيًّا أتى النبي ﷺ فقال:يا رَسُول الله:الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل

ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه. وفي رواية: يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية. وفي رواية: يقاتل غضبًا، فمن في سبيل الله؟ فقال رَسُول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

واستعمل الإسلام أيضا لفظة الشهيد دون وصف «في سبيل الله» في وصف المؤمنين الذين ماتوا بأسباب معينة من أسباب الموت، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. وعنه ﷺ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**ما تعدون الشهداء فيكم؟**» قالوا: يا رَسُول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: «**إن شهداء أمتي إذًا لقليل!**» قالوا: فمن يا رَسُول الله؟ قال: «**من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد**» أخرجه مُسلِمٌ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ الله عَنهُما قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. وعن أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ﷺ قال سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**» أخرجهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

كما أن النبي ﷺ نهى عن إطلاق هذا الوصف على وجه التعيين إلا بدليل خاص يعين فيه الشارع الشهيد بعينه كما وصف النبي ﷺ بعض أصحابه بذلك كما في صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ حدثهم: أن النبي ﷺ صعد أحدا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق، وشهيدان**». قال البخاري في «صحيحه» باب: لا يقول فلان شهيد. قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ:

«الله أعلم بمن يجاهد في سبيله، والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله». ثم أخرج حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ: أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل، لا يدع لهم شاذة ولا فاذة، إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه من أهل النار»**. فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: **«وما ذاك»**. قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»**.متفق عليه.

فإذا كان الرجل الذي قاتل مع رسول الله حتى قتل لا يجوز لنا أن نسميه شهيدا على وجه التعيين فكيف بمن دونهم بل كيف بوصف الكافرين والمشركين والمنافقين بذلك؟!. عياذا بالله من الخذلان.ولكن بعض الناس يتلاعب بالألفاظ الشرعية ليمرر ويبرر واقعا يعيشه فيعمد إلى هذه الألفاظ الشريفة فيدنسها بنسبة الضالين والمنحرفين بل والكافرين إليها. ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ الله وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ النساء [١٢٣].

❁❁❁

الثالث والعشرون

المعنى الحقيقي للأدب

إن الترقي في مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال أمر تتوق إليه سائر النفوس وقد بين العليم الخبير بعباده أن في العباد هلعًا وكنودًا وظلمًا وجهلًا لا يمكن التخلص منه إلا بالتأدب بالآداب الإسلامية والتعاليم الربانية التي جُمِعَتْ في المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ الأحزاب [٢١].

هذا والشيء الذي نحن بصدد التحدث عنه وبيانه أن كثيرا من العباد لا يعرف من الأدب إلا معنى واحدا ضيقا عليه تدور أقوال أكثر الناس وهو المعيار عندهم في وصف العباد بعضهم بالأدب وبعضهم بسوء الأدب.

فإن المتأمل في أحوال كثير من أفراد هذه الأمة يجد أنهم لا يعرفون من الأدب إلا كون الإنسان طيب الخلق حسن المعاملة مع العباد من أمثاله يحسب الحساب لمقاله، فهو لا يطلق الكلام على عواهنه وعلاته، ولا يسلط لسانه على الآخرين، ويعرف حق الكبير فيحترمه ويوقره، وهذا كله حق وحسن وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة [٨٣]، وقال عليه الصلاة والسلام كما عند أحمد والترمذي من طُرُق عن عَمْرِو بن شُعَيْب عن أَبيه عن جَدّهِ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»**.

ولكن المشكلة تكمن في حصر وقصر مفهوم الأدب على هذا النوع خاصة.

وعليه فلابد علينا أن نعلم أن الأدب ينقسم إلى ثلاثة أقسام وهي على النحو التالي:

أولا: الأدب مع الله رب العالمين ويتفرع عنه الأدب مع الملائكة والكتب والأنبياء والمرسلين وجميع ما يتعلق بالقدر والدار الآخرة.

والمعنى أن من أرد أن يحقق هذا الأدب العظيم مع الله رب العالمين فما عليه إلا أن يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي الواردة في الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

ثانيًا: الأدب مع الآخرين وهذا هو الذي يتعامل به أكثر العباد بل وأكثرهم لا يحسن سواه في تحديد وتقييم العباد من المؤدب ممن هو سيئ الأدب منهم، وهذا النوع أيضًا حصل فيه خلط عند البعض حيث إنهم يسوون بين جميع العباد فيه فلا يفرقون بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والعالم والعامي،وهذا خلط رهيب ينبغي التفطن له وقد بين الإسلام حدود كل واحد من هؤلاء، فلا سواء بين الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار والأتقياء والأشرار، وعلى كلٍّ فقد ضبط الإسلام هذه المسألة ضبطا دقيقا بالغا فعلينا أن نتعلم ذلك أو أن نسأل أهل العلم إن كنا لا نعلم. ولا ننسى أن نؤكد على قضية مهمة ألا وهي الأدب مع الأهل والذرية بالقيام عليهم بطاعة الله رب العالمين.

ثالثا: الأدب مع النفس وذلك بالقيام على النفس والجوارح والأهواء وقبل ذلك على القلوب بطاعة الله رب العالمين حتى تتهذب النفوس وتستقيم على الصراط المستقيم فتترقى النفس في درجات الكمال وقد أدب الله جل جلاله عباده بجملة من الآداب في خاصة أنفسهم، فمن عمل بها كمل وحسنت حاله ومن تركها كان على خلاف ذلك قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ۞ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ

الجِبَالَ طُولًا ۞ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ الإسراء [٣٦ ـ ٣٨].

وما أحسن ما قاله الشاعر:

عجبت لمن له حد وقد ... وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي ... فلا يذر المطيَّ بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس عيبًا ... كنقص القادرين على التمام

وبعد هذه المقدمة المختصرة ـ التي تحتاج إلى كتاب ضخم لبسطها ـ وكتاب الله وسنة رسوله أعلى وأجل، فمن أقبل عليهما وعقل خطاب الله فيهما استبانت له السبيل وكان حقًّا من عباد الله المؤدبين.

والآن لنعد إلى مفهوم الأدب عند الأكثرين؛ لنرى ذلك الخلل الواضح في التعامل مع هذا المفهوم الإسلامي.

ألست ترى وتسمع ـ أخي المسلم ـ من يُوصَفُ من قبل البعض بالأدب الجم والخلق الرفيع وهو معاند لله ورسوله، أو محارب لشرع الله وعباد الله المتقين؟! الجواب: بلى.

وألست تجد من يُمْدَحُ بحسن الخلق وهو مقيم على المعاصي والمنكرات من ترك الصلوات أو التخلف عن الجمع والجماعات، مع الإصرار والحرص على مقارفة الفواحش وتعاطي المحرمات ـ المسموعة منها والمرئية ـ من الأغاني والأفلام والمسلسلات، ومتابعة أحوال الفاسقين والفاسقات من الممثلين والممثلات، والهابطين والهابطات، واللاعبين واللاعبات، والماجنين والماجنات، أو يكون من أكلة الربا أو من أهل الغش والمراوغة والمكر والغدر والخداع ممن يتفننون في أكل أموال الناس بالباطل، ومع هذا كله تجد من يثني على هذا الإنسان بالأدب وحسن الخلق؟!.

الجواب: بلى، هذا موجود ولربما كان بكثرة. ألا ترى معي أن هناك كَمًّا ليس باليسير من الناس يمدح بعض النساء الكاسيات العاريات بالأدب لما رأوه من بعض تصرفاتهن في واقع معين وحال معينة؟!

كيف يحق لعبد أن يثني على هؤلاء النساء بالأدب وحسن الخلق وهن مخالفات لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث قال: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ الأحزاب [٣٣] فأَبَيْنَ إلا عدم القرار في البيوت، وأبين إلا أن يخرجن فاتنات مفتونات كاسيات عاريات فلا حياء ولا حشمة؟!

إذا قلَّ ماء الوجــه قـل حـياؤه ولا خير في وجــه إذا قل ماؤه

كيف يُمدحن بالأدب، والنبي ﷺ يبشرهن بنار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى؟! كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رســـول الله ﷺ: **«صنفان من أهل النار لم أرهما. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس. ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**.

بل ومن الطوام العظام في هذا الزمان أن ترى وتسمع من يمدح بعض رءوس الطغيان والضلال والزندقة بالأدب وحسن الخلق مع أنه محاد لله تعالى من أمثال عباد القبور، أو المدعين لعلم الغيب ممن يسمون بالأقطاب والأغواث والمألهين لأنفسهم والمدعين قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات. بل ومن الذين نصبوا أنفسهم مشرعين للعباد من دون الله، أو مع الله ـ رب العالمين ـ فحكموا في رقاب العباد بغير شرع الله الذي خلقهم وسواهم وعدلهم وأوجدهم من العدم.

أقول: مع هذه الطوام العظام تجد من يمدح هؤلاء ويلمعهم ويعظمهم عبر الوسائل الإعلامية المختلفة من قبل مرتزقة الأقلام والمتأكلين بدينهم في دنياهم، الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله كما في «صحيح مسلم» من حديث ابن مسعود ﷺ، أن رَسُول الله ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم**

بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وليس سرًّا أن تجد من يمدح الذين ضيعوا أماناتهم، فيقال: ما أحسنهم! وما أظرفهم! وما أعقلهم! وهم من أسوء العباد أدبًا، وأقلهم أمانة ـ والعياذ بالله ـ كما جاء في «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: حدثنا رَسُول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: **«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شيء»** ثم أخذ حصاةً فدحرجه على رجله **«فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**.ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت: لإن كان مسلمًا ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانيًّا أو يهوديًّا ليردنه علي ساعيه. وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا.

بل إنه ليس بعجيب أن تجد من يمدح الكفار بالأدب، وحسن المعاملة، والانضباط في المواعيد، والأمانة والعدل والإنصاف وغير ذلك كثير.

كل هذا يؤكد على وجود خلل واضح جلي في هذا المفهوم عند بعض المسلمين هدانا الله وإياهم. وعليه، فنقول: إن أصل كل أدب هو الأدب مع الله تعالى، فكل أدب لا يكون فرعًا عن الأدب مع الله ـ رب العالمين ـ فهو أدب مزيف هزيل، ولا يستحق صاحبه أن يوصف بذلك حقيقة، ولابد من تصحيح هذا المفهوم في العقول والقلوب حتى يكون كذلك.

فكيف يسوغ لنا أن نصف العبد المعرض عن الله تعالى بالأدب في حين أنه سيئ الخلق والأدب مع الله رب العالمين؟!!.

وكيف يحق لنا أن نصف بالأدب عبدًا هو قائم بالشرك الأكبر، ومتلبس به ـ والعياذ بالله ـ من ذلك والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان [١٣]؟!

كيف يحق لنا أن نصف بالأدب من نصب نفسه مشرعًا للعباد من دون الله، أو مع الله وهو محاد لله ومنازع إياه في أخص صفاته ـ تبارك وتعالى ـ ألا وهي صفة الحكم والله تعالى يقول:﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يوسف [٤٠]، وقال تعالى:﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لله يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ الأنعام [٥٧]، وقال تعالى:﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله وَلَوْلَا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الشورى [٢١]، وقال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِالله إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ الله تَوَّابًا رَّحِيمًا ۞ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ النساء [٦٠ ـ٦٥]؟!

ومع هذه النصوص المتكاثرة المتضافرة، نجد من يمتدح الحاكمين بغير ما أنزل الله، ويذب عنهم بالغالي والنفيس، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ وَكَانَ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ النساء: [١٠٧ ـ ١٠٩] فياللعجب!!

ومن العجائب ـ والعجائب جمة ـ أن تجد من يغضب على من يسيء الخلق مع الآخرين في حين أنه سيئ الخلق مع ربه ونفسه، وتجد من يغضب إذا وُصِفَ بِقِلَّةِ الأدب في حين أنه هو كذلك مع الله تعالى ونفسه.

ومن المهازل ـ في زمن المهازل ـ أن يوصف بالأدب من يسب الله تعالى ويؤذيه، فهناك من يثني على الغرب الكافر ـ وهو بين يهودي أو نصراني أو دهري ملحد ـ والله تعالى يقول كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤًا أحد**» أخرجه البخاري.

وفي «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ «**قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر! فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر! فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره. فإذا شئت قبضتهما**».

أليست هذه الأوصاف تنطبق على الكفار من يهود ونصارى وملاحدة دهريين؟! كيف والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتْ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ الله ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ التوبة [٣٠ ـ ٣١].

فكيف يسوغ لأحد أن يصف هؤلاء الأشقياء بالأدب، والأمانة، وحسن المعاملة والعدل والإنصاف، وهم يسيئون الأدب مع الله رب العالمين، فلو قيل للواحد من هؤلاء المادحين لصناديد الكفر، وعتاة العصر من طواغيت العالم من اليهود والنصارى والملاحدة وأشباههم لو قيل للواحد منهم: إن فلانًا يسب أباك، أو أمك، أو عشيرتك، أو قبيلتك لأرغى وأزبد ولوَصَمَ هذا الفاعل لذلك بأبشع الألقاب، ولرماه بعظائم العبارات، ولو سمع أحدًا يمدح هذا الذي سبه بأنه مؤدب حسن الخلق لفتك وبطش به. فكيف بمن يسب الله رب العالمين؟ ولكن كثيرًا من الناس ينطبق عليه قول الله جل وعلا:﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون﴾ الروم [٧].

وكيف يمدح من نقض العهد مع ربه وخالقه بالوفاء والأمانة وحسن المعاملة والله تعالى يقول:﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفَاسِقُونَ ۞ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة [٩٩ ـ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ آل عمران [١٨٧]، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن

بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ۞ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف [١٧٢ ـ ١٧٤]. أليس هؤلاء الكفار هم الذين نقضوا عهدهم مع رب العالمين الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا؟! ومع هذا يزعمون أن لهم جنات النعيم والله تعالى يقول: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة [٨٠ ـ ٨١].

فنقول للذين يمدحون هؤلاء بالأدب: اسمعوا بم وصفهم الله العليم الخبير بعباده القائل:﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك [١٤]، ويقول تعالى في هؤلاء الكفرة: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنفال [٢١- ٢٣] وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ الأنفال [٥٤-٥٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ الأعراف [١٧٩] وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۞ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان [٤١-٤٤].

ثم إن كل خلق حسن عند هؤلاء الكفرة هو مأخوذ أصلًا من هدي الأنبياء والمرسلين فهذه بقايا آثار الأنبياء والمرسلين عندهم بعد أن حرفوا دينهم وتركوا أصول الشرع وتوحيد الله رب العالمين. فكيف تنسب هذه الأخلاق إليهم، وعندنا رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم [٤] فلن تجد أحدا أكثر أدبًا ولا أعظم خلقًا ولا أشد وفاء من رسول الله ﷺ.

وبكلمة جامعة نقول:

إن كل من أحسن الأدب مع الله رب العالمين فهو حسن الأدب مع نفسه، والآخرين وليس العكس. هذا هو المعيار الحق الدقيق ولهذا تجد وبكثرة من يحسن الخلق ويحرص على الأدب مع الناس، وهو سيء الخلق والأدب مع الله رب العالمين مظهرًا ومخبرًا فالقلب فيه جملة من الأمراض من الكبر، والحسد، والاحتقار، والازدراء، والمن والعجب والإدلاء، وحب أعداء الله من الكفرة والملاحدة، وتعظيمهم والفتنة بطريقة حياتهم مع أنهم أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن

بأنفها. وفي المظهر مخالفات واضحة ظاهرة من حلق للحى، وإسبال للثياب، واختلاط بالنساء الأجنبيات، وخلوة بهن ومصافحة لهن مع التشبه بالكفار في اللباس من بنطال وكرفتة وبِدَلٍ وغير ذلك مع سماع ونظر للمحرمات، وغير ذلك ناهيك عن الخطب الأعظم من الكفريات والشركيات من عبادة غير الله بالغلو في الصالحين والأموات والغائبين، وصرف العبادات لهم من دون الله ـ تعالى ـ وانتهاء بالحكم بغير ما أنزل الله في عباد الله وخلقه. فمن أراد أن يوصف بالأدب وأن يكون جديرًا حقيقًا بهذا الخلق العظيم الذي يفرح به كل من ينسب إليه فلينظر في حاله أي عبد هو مع الله رب العالمين في أوامره ونواهيه. فقد جعل الله تعالى فيك يا ابن آدم شاهدًا عليك من نفسك يبين لك هل أنت من المؤدبين أم من قليلي الأدب؟

فمقل ومستكثر وليختر كل عبد لنفسه الصفقة التي يريد فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد [١٠] وقال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۞ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۞ فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ الليل [١ ـ ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ الشمس [٧ ـ ١٠].

ولكن الرابح الفائز المفلح هو من كان على ما أراد الله تعالى من عباده. فلنشمر عن ساعد الجد لتزكية نفوسنا حتى نكون ممن قال الله

فيهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ الليل [٥ ـ ٧] ابتداء مع الله رب العالمين مرورا بالنفس وانتهاء بالآخرين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

❁❁❁

الرابع والعشرون

الفرق بين الجهل والأميَّة

إن المتأمل في تعامل العباد مع هذين اللفظين يجد أن كثيرًا من الناس يجعلهما بمنزلة واحدة وإن العلاقة بينهما متلازمة، فمتى ما وجدت الأمية كان الجهل قرينا لها والعكس كذلك.

وسبب هذا الفهم الخاطئ هو أن بعض العباد ظن أن مجرد عدم معرفة الإنسان للكتابة والقراءة والحساب فإنه يكون بذلك جاهلا أميًّا أما إذا كان عارفا بالكتابة والحساب صار بذلك متعلما واعيا ولا يوصف بالجهل والحالة هذه. والمتأمل لنصوص الكتاب والسنة يعلم أن الإسلام غاير بين هذين الوصفين فليس كل أمّي جاهلا كما أنه ليس كل من عرف الكتابة والقراءة والحساب اندفع عنه وصف الجهل.

بل وصف الله تعالى ـ العليم الخبير بعباده ـ جملة من العباد بالجهل مع أنهم ذووا معرفة بالكتابة والفهم والحساب بينما وصف سبحانه وتعالى آخرين من عباده بالأمية مع أنهم من أعلم الناس وأفضلهم وأحسنهم.

ومن هنا نعلم يقينا أنه ليس هناك تلازم بين الجهل والأمية من كل وجه وعلى كل حال.

إذن ما هو المفهوم الحقيقي للأمية والجهل؟.

إن وصف العبد بالأمية ليس وصفا ذميما كما يظنه البعض بل هو مما

يمتدح به العبد في بعض المقامات، فقد امتدح الله تعالى به خير خلقه على الإطلاق نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لما وصفه بذلك مخبرا عن حاله كما وصف بذلك أصحاب نبيه الكرام البررة ﷺ أجمعين حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ الجمعة [٢].

فأخبر تبارك وتعالى أن النبي ﷺ أمّيٌّ وكذلك أصحابه وأخبر أنه سيعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بهذا النبي الأمي ﷺ الذي يتلوا عليهم آيات الله تبارك وتعالى. إذن يمكن للأمي أن يتعلم ويصير عالما بدون كتابة ولا قراءة.

فالعبد قد يكون أُميًّا بمعنى أنه لا يحسن القراءة(١) والكتابة والحساب ولكن هذا لا يعني أن يكون جاهلا بل قد يكون من أعلم الناس بل قد يكون هو أعلم الناس على الإطلاق كما هو حال نبي

(١) ومما ينبغي التنبيه عليه أن لفظ القراءة يرد بعدة معاني وله عدة أحوال فالقراءة تكون بترديد المقروء كما قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق [١ ـ ٥] وبهذا المعنى قرأ النبي ﷺ لا بمعنى أنه يعرف قراءة المكتوب فإنه كان أميا عليه الصلاة والسلام، كما تكون بالقراءة من اللوح كما تكون بالقلب تدبرا. فتأمل ذلك.

الهدى والرحمة الأمي الذي علم المتعلمين اليتيم الذي بعث الأمل في قلوب اليائسين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فالأمية وصف ممدوح ولهذا تجد أقرب الناس وأسرعهم إلى تلقي الحق وقبوله الأميين وذلك لأن الأمي غالبا لا يعتد بعقله في مقابلة الشرائع بل هو معتد بربه وشرعه وكتابه ونبيه، بخلاف من يدعي العلم ويفرح بعلومه الحياتية تجده ذاهبا تائها بعقله يطير به كل مطار، يقول هذا يليق وهذا لا يليق، وهذا ينبغي وهذا لا ينبغي، ودعني حتى أُعْمِلَ عقلي لأَقْتَنِعَ، فعقله الفاسد أشقاه فجعله حاكما لا محكوما، مُقَدَّماً لا تَابِعاً، حتى إنه ليكاد أن يستدرك على الشارع العليم الخبير الحكيم، بل لربما فعل نسأل الله العافية والسلامة من الردة والزندقة والنفاق.

واسمع إلى ما قاله الله تعالى في شأن هؤلاء الذين اعتدوا بعلومهم في مقابلة الشرائع ٹ ڈ چھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ چ[غافر: ٨٣]، وقد جاء توبيخ أمثال هؤلاء في محكم التنزيل فقال تعالى:چ ى چ [الإسراء: ٨٥]، و ٹ ڈ چ ڤ ڤ ڤ ڤ ڄ ڄ ڄ

ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓﮔ [النجم: ٢٩ – ٣٠].

وقال في شأن المؤمنين الصادقين الذين يجعلون عقولهم تابعة للمنقول عن الله والرسول، ويعترفون بقصور عقولهم، ويعتقدون العصمة والكمال في كلام الله والرسول فقال تعالى:**ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭼ** الرعد: ٣٦.

قال ابن القيم في قصيدته النونية:

فإذا تعــارض نـص لفـظ وارد ... والعقــل حتى ليس يلتقيان

فالعقل إما فاسد ويظنه الرائــــــــي صحيحا وهو ذو بطلان

أو أن ذاك النـــص ليس بثابت ... ما قـاله المعصــوم بالبرهـان

ونصوصه ليس تعارض بعضها ... بعضا فسل عنها عليم زمان

وإذا ظننت تعارضـا فيهـــا فذا ... من آفـة الأفهــام والأذهان

فنخلص من ذلك إلى أن وصف الجهل إنما يطلق أصالة على من لم يعرف ربه تبارك وتعالى ولم يتعلم حدود ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وإن كان قارئا متقننا وكاتبا بارعا وحاسبا حاذقا فإن كل هذا لا يغني عنه شيئا فهو لم يزل جاهلا.

والناس يتفاوتون في تحصيل العلم النافع الموروث عن النبي ﷺ وعليه فكلما قلت المعرفة بهذا العلم كثر الجهل واستحق العبد أن يوصف بذلك بحسب حاله حتى إذا استحكم الجهل بالعبد كما في الكافر والمشرك

والمنافق استحق وصف الجهل المطلق.

فأجهل الناس على الإطلاق إذن هم أعداء الله رب العالمين وإن كان يشار إليهم بالبنان ـ عند السذج من الناس ـ بحسن البيان وإتقان الحساب.

وفي نفس الوقت قد يكون العبد أعلم الناس في قومه وهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة ولكنه يحفظ ويضبط ويعي ويفهم حدود ما أنزل الله على نبيه ﷺ من العلم النافع والعمل الصالح، فلا يضره عدم معرفته بالكتابة والقراءة.

فلا بد إذن من ضبط هذه المعاني حتى لا نقع في الخلط وسوء الفهم، وليس المراد هنا التقليل من شأن الكتابة والقراءة والحساب فإن الله تعالى قد امتن بذلك على عباده كما في صدر سورة العلق وفي مواضع من كتابه العزيز وجاءت السنة الصحيحة بالحث على ذلك وتعلمه وطلبه، وفضل ذلك واضح بين ظاهر، وإنما المراد هو تصحيح مفهوم معين اختلط عند كثير من العباد فظنوا أن الأمية مذمومة من كل وجه ومن كل أحد وعلى كل حال.

ومن أجل هذا الخلل البين الواضح في فهم هذه المسألة الكبيرة وجدنا ـ وهذا كثير جدا ـ من يحرص على تعليم أولاده القراءة والكتابة والحساب في حين أنه لا يكترث لدينهم وعلمهم بشرع الله تبارك وتعالى فلا يلتفتون لتعلم العلم الموروث عن الصادق المصدوق ﷺ.

كما أنك ترى أن أكثر ولاة أمور المسلمين يحرص على تثقيف شعبه بدعوى الحضارة والتسابق في الرقي والتطور فيرفع شعار محاربة الأمية ومحوها زعما منهم أنهم بذلك يدفعون عنهم الجهل وهذا ليس بشيء، وما أكثر هؤلاء في عالمنا اليوم.

فعلينا جميعًا أن نعلم أن الأمر الذي يجب أن يحارب ويطارد

ويصادر هو الجهل وليس الأمية، وإن العباد لن يندفع عنهم وصف الجهل بمعرفة الكتابة والقراءة والحساب وإنما يندفع عنهم ذلك بتعلم الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة. فكم من دكتور وبرفسور ورحَّالة وبَحَّاثة ومهندس وطبيب وغير ذلك كثير هم ممن حق عليهم وصف الجهل؟!.

وكم من مزارع أمي بسيط وكم راع للغنم أمي فقير هو أعلم من هؤلاء عشرات بل آلاف المرات؟!.

فليس الشأن أن تكون كاتبا وقارئا وحاسبا ولكن الشأن كل الشأن أن تكون متقيا عالما بالله تعالى وبشرعه، فإنما يتفاضل العباد بذلك، ولن تكون كذلك حتى تتعلم دين النبي ﷺ.

وما أحسن ما رواه ابن عبدالبر بسنده إلى عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال:

دين النبي محمد أخبار ... نعم المطية للفتى آثار
لا ترغبن عن الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس بازغة لها أنوار

ثم قل لي بالله عليك هل أضر بالصحابة كونهم أميين، وهل نفعنا كوننا اليوم عارفين بالقراءة والكتابة والحساب؟!

كلا والله ما ضر القوم بذلك، بل صاروا إلى ما تعلم من العز والتمكين والنصر والكرامة، كما أننا لم ننتفع بهذه المعرفة كذلك، لأنها عزلت عن دين الله تبارك وتعالى حتى صارت دور المعرفة اليوم ـ زعموا ـ أعني الجامعات والمدارس، تطفح بالجهل الذريع والغثائية المنقطعة النظير. وما ذلك إلا لأن الأمة أخطأت الطريق إلى العلم النافع، حتى ظنت أنه يتمثل في علوم المادة فجاءت علوما جافة معزولة عن الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، بل تنكرت لميراث

الأنبياء والمرسلين. فعاشت ذلا لم تعرفه من قبل بهذه الصورة المزرية، مع تنوع المعارف المادية، ولكن أين الدين؟!

ووالله الذي لا إله غيره لأن تعود الأمة أمية كما كانت ويعود إليها عزها ومجدها بالعلم النافع والعمل الصالح، خير لها من هذه الحياة الردية مع معرفة دنيوية لا تُسْمِنُ ولا تغني من جوع.

فمرحبًا بالأمية إن كانت ستعيدنا إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، ولا مرحبًا بالقراءة والكتابة إن كانت سببًا في الحيلولة بيننا وبين العلم النافع والعمل الصالح.

وأخيرًا أقول: العلم ضد للجهل وليس العلم ضدًا للأمية، فلا تنافي بين الأمية والعلم، كما أنه لا تلازم بين الجهل والأمية. والله أعلم وأحكم.

❁❁❁

الخامس والعشرون

معيار الذكاء والغباء

إن المتأمل في تعامل بعض العباد مع هذين الوصفين يلاحظ خللاً ظاهرًا عند بعضهم، فالذكي عندهم هو البارع الحاذق في تحصيل المكاسب بشتى الوسائل سواء من حل أو من حرمة وهو أيضًا ذلك القادر على التلون والتكيف مع الأوضاع والأحوال، بمعنى آخر هو البارع في ركوب الموجة والتقلب معها علوًّا وانخفاضًا إقبالاً وإدبارًا بغض النظر عن الوسيلة أو المركب الذي يستعمله في ذلك وهو أيضًا المتمرس في أساليب التحايل والتلاعب مع الآخرين، وهو المتمكن من مقابلة كل قوم وموقف بما يناسبه مطوحًا بالمبادئ والقيم إذ لا وزن لها عنده إلا أن تكون وسيلة لتحصيل المكاسب وتحقيق المآرب.

هكذا يوصف أمثال هؤلاء عند البعض بالذكاء و(الفهلوة) فهو الألعُبانُ البارع والمراوغ الماهر و(الجُمبَازي) الحاذق.

والمعيار عند هؤلاء هو تحصيل حطام هذه الفانية بأسرع وقت ممكن بغض النظر عن الوسائل فهو الوارث لمقولة اليهود (الغاية تبرر الوسيلة).

في حين أننا نرى ونسمع هنا أو هناك من يصف الغافل المعرض عن المكاسب المحرمة والمعاملات المشوبة المشبوهة المتعفف عن الشهوات المحرمة[1] المحقق لمبدأ:

(١) حدثني من لا أتهم أن امرأة خابرته بالهاتف الجوال قائلة له: هذا رقم فلان؟

﴿❒◆❒✍♦❽♦❒□❒⑩←❒✂☎ ♦□✉♍
⌘⌧❷⬀❸◆ ✂❽❑⑩✂♌
✂✍✋✸☾⌫❑◆❽▤﴾ البقرة [١٩٧] نجد من يصفه بالغباوة والسذاجة.

وحتى لا تضيع المبادئ والقيم الإسلامية في زحمة الأحداث واللهاث المُتسارع لدى البعض على ملذات الحياة الدنيا وحتى لا يغتَر البسطاء والسذج بأمثال هؤلاء الذين أخذ خَبَثَهُم يمتد ليطول عقولاً مغرمة بحب الشهوات وقلوبًا سكرى بجمع الأموال كان لزامًا علينا جميعًا أن نعود من قريب إلى كتاب الله العظيم وسنة نبيه الصحيحة المطهرة لنَقِفَ على حقيقة أمثال هؤلاء ولنعرف من هو الذكي ومن هو الغبي وما هو الضابط في ذلك.

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجد أن العليم الخبير بعباده قد حدد من المستحق لوصف الذكاء والعقل ومن هو الغبي المغفل، ويَكْمُنُ بيان ذلك في هذه الآية الجامعة ﴿❒◆✌◆♦✍
⌘⌧■❓☾⌫→ ✂✍♎♑⌫☾♏
❒◆✂✍"■☼💣"❑ ♦♦♍☾
✍✋❍◆➔✍⌨➔⑨←❒♌✍﴾ الذاريات [٥٦].

فأجابها: الرقم خطأ وأغلق الخط، فعاودت الكرة مرة أخرى فرد عليها بنحو من ذلك وأنهى المكالمة؛ فاتصلت عليه ولكن في هذه المرة بادرته بقولها: «يا غبي»!! (لأنه لم يتجاوب معها في كلام الحب والغزل والمواعيد واللقاء).

بل حتى على مستوى الصغار نرى ونسمع من يمدح بعض الصغار بالذكاء لكونه قادرًا على حفظ الأغاني وكلام الممثلين والممثلات أو لأنه ممن يتقن ويتفنن في تقليد الرقصات والأصوات، بل ويباهى بهم آباؤهم وأقاربهم!! فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالذكي العاقل هو القائم بالوظيفة التي لأجلها خلقه الله تبارك وتعالى، والغبي المغفل هو التارك لذلك وكل بحسبه فكلما كان العبد أكثر قيامًا بهذا الواجب كان أحق بوصف الذكاء والعقل والعكس بالعكس.

كما أن الشارع الحكيم قد بين صفات عباد الله المتقين ذوي الألباب والنهى وأنهم يبنون حياتهم على الصدق والعدل والإنصاف والوضوح بل ولربما ارتقوا إلى مرتبة الإحسان العظمى.

كما بين صفات المنافقين والمجرمين، وأن من أخص خصائصهم الكذب في الحديث والغش في التعامل، والتحايل على الآخرين، وأنهم من ذوي الوجهين، المتشبعين بما لم يعطوا وإليك جملة من هذه النصوص الدالة على ذلك.

قال تعالى في وصف حال المنافقين الذين ظنوا أن الذكاء في التلاعب بالدين واستغفال عباد الله الصالحين وذلك بإظهار خلاف ما يبطنون ظانين أنهم بذلك من الأذكياء الفطنين القادرين على التماشي والتعامل مع الواقع فبين تعالى أنهم هم الأخسرون وأنهم هم المخدوعون وأنهم من أغبى عباد الله حين باعوا الآخرة بالدنيا فقال تعالى:

☎✂❑↖☪♦✌✂◆↗ ♦✖⇦♌🔔⅄✐✍✂◆❒

✋♦♌☽ ♒♍❑↖↖♎⑨↘③♦⑥ ✍♦✌◆❒

✍♦✌◆❒ ↗☠←♑✿○→▦☼❒🕮

❼♌✖ ⇦♐⇨ ♦♌❒↑❹↖➔⇧⌖□④

⌧➢⌘❺❍☜ ☠♌♑♌✍❑➔🖬➔🔔

✍☪⇨♦❷♦✌ ✦✐✍✂ ↖☠➔♎♎⑩✂♦❽♦▫

↖✇✂☒❍♦↖ ⇔⚐←♑♦◎◆❒ ☎

✍♎☺♌✍ 📠⚐⑩♌◎❒🕮

♦♌❑←✍⇨❍↖▤♦③ ☎✂❑←☼🔔☒✍

↗☠←♑♦◎ •✍⑩♌🔔 ✂♦❶♌☽◆❒ ⇦⇨⇨⇨

❼♌✖ ☎✂❒←⑨↖○↘▦➔✍ ••

☎✂☑❑↗◎✍♦🔔 ⇦➢↗❻☞✿✍✂

←♊↘♦♦✞ ✍♎☺✵☼♌☽

✋♦❒🕮 ⇦⇨⇨⇨ ♒♍❑←♦♌⇔⏲↖✌

↖☠➔♎ ↗☠←♑✵☼♌☽

♊↖▤⏲♦◎◆❒ ♦♌❒←⑨↖○↘▦←☺↘◎✍✂

⇦⇨✖⇨ ♦♌❒↑❹↖➔⇧⌖□④ ••

↗☠←♑♦◎ •✍⑩♌🔔 ✂♦❶♌☽◆❒

✐✍♎☺☒✍ ☎✂❑↖✡♌✌✂◆↗

↓□✍□☪◎✍✂ ⌘♊♦✌✂◆↗

←♊♌✌✍♦←☼❒🕮 ☎✂☑❑↗◎✍♦🔔

⌘♊♦✌✂◆↗ ✐✍♎☺☒✍

﴿ البقرة [٨ـ١٦]، وقال تعالى:
﴿ النساء
[١٤٢ـ١٤٣].

وقال تعالى فاضحًا أمرهم ومبينًا حالتهم الردية: ﴿

وقال تعالى: المنافقون [١ـ٤]

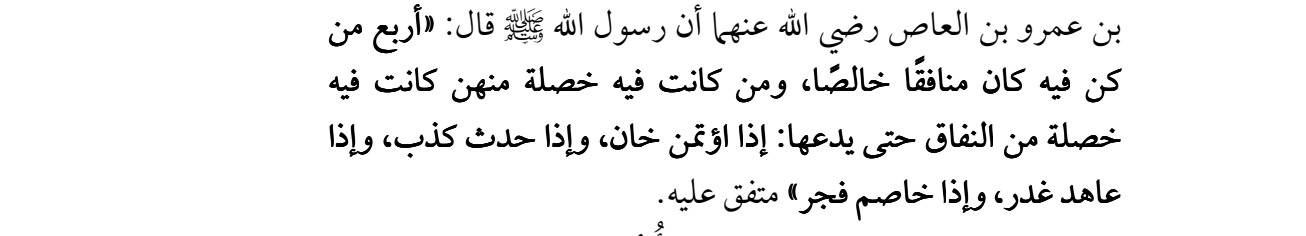

التوبة [٦٧ـ٦٨].

وقال النبي ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خًان»** متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي رواية لمسلم عنه ﷺ: **«وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»** وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»** متفق عليه.

وقال في بيان حال وحقيقة المتلون الأُلعُبَان: **«تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»** متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ. وعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة فهل عليّ جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال النبي ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»** متفق عليه.

هذه هي حالة المتلاعب المنسوب إلى الذكاء عند البعض، وهذه هي حقيقته، وهذا هو حكم الله ورسوله فيه، فلا يعدوا أن يكون متشبهًا بالمنافقين، إن لم يكن منهم أو أن يكون من شر الناس.

أما العاقل الفطن هو المؤمن المتقي الذي يعلم أنه غدا بين يدي الله موقوف وبعمله مرتهن وعنه مسؤول فلا يضع قدمه في موضع لا تحمد عواقبه، يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه يأتي الناس الذي يحب أن يأتوه به وإليك جملة من أوصاف هذا الذكي الحقيقي العاقل:

قال تعالى: [illegible]

البقرة [١٦٤]، وقال تعالى:

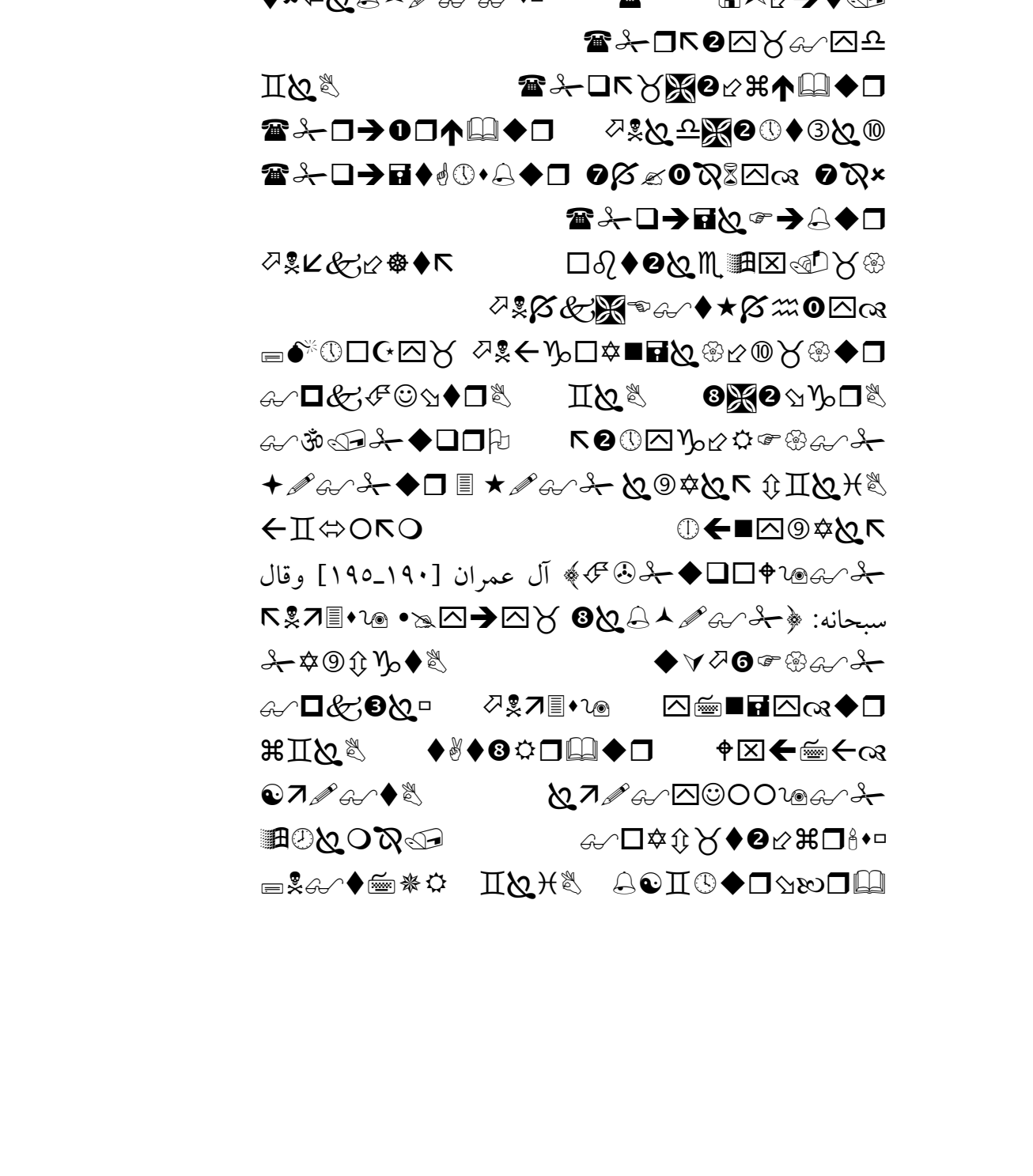

وأما من السنة الصحيحة فإليك جملة من أوصاف الأذكياء المتقين:

فعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» متفق عليه.

وعن أبي رقية تميم بن أوس الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا:لمن؟ قال:«**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**» رواه مسلم.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظلم فإن ذلك نصره**» رواه البخاري.

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج**

عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض؛ وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى ههنا** (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم؛ كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»** رواه مسلم.

وبهذا يكون قد تبين لنا من هو الذكي ومن هو الغبي حقًّا؟!، فالغبي حقًّا هو الذي يشتري الفاني ويبيع الباقي، الذي يجمع الحسنات في الدنيا لتوزع على غرمائه يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ:**«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ»**. رواه مسلم.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ: **«من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**.

وفي البخاري معلقا: «**إنما المفلس الذي يفلس يوم القيامة**».

والذكي حقًّا هو الذي يبيع نفسه لله جل وعلا ليشتري جنة عرضها السموات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والعاقل هو الذي عَقلهُ عقّله عن الحرام فكان من عباد الله المتقين.

ولهذا بين تبارك وتعالى أنهم لا سواء فقال تعالى: ﴿🔔➔✍ ⬥⬝
④❑○⬄✌⬧❑⬀❽ ✂◌🖳⬂③⬧🖮⊗⑩☸🡐
❒⬥✂◌⬃⬥🙰⅄❶♒⊘🖬⬥⬆ ❒⬥⬃⬥❑⬁
📖❒⬉⇳⬀⊠🖮⬥🖮⊠ 📪⊠✡⬂❸⬥❑⬈
✂◌🖳⬂③⬧🖮⊗⑩☸⊗ 🗐
⬝⊡✍◌◌❑☽→❑✂☎ ✂◌✎⅄
③⬥🕔✵🕯⬆❑🕯🖫⊘❼ ✂◌✿☞⬃⬂⌛⬥🕔🖬⬃
⬃⬥➔⊠🖬✦▤⬈☠⬀ ✍ ➔▦⬂🖬⊗⬥🡐❑♍⬭﴾ المائدة
[١٠٠]، وقال تعالى: ﴿📖❒⊡⬥☺⊠♊ ③⬥➔⬀🖬■⚐❶
📖❒☼✵☺⊠◌✎ 📖⬆☼❽⊠✌⬥
☽⊗⬃⬥❶⬂🖮⊠ ✍⊗♊ ❻○📭♓⊗🖮⊠
✂◌🖳⬂⬥■📭❻ 📪⊠☺⊠♊⇳ ♎➔❑⬥
📖❒⬉⇳☺⊠❻✂ 🗐 ☽⊗✞⅄▦❑◌
③⬥✌⬥❶⊠📪⅄❷⬉ 📖⬆❑🕯⬃⬈❑✂☎
✂◌✿☞⬃⬂⌛⬥🕔🖬⬃ ⬀⊘⬂⬁
✂◌✎⅄🔔⊗⬄×⬥ ③⬉❑⬝➔❑♌⬥
📭⊗➔⊠♑⇳⑨⊗ ✂◌✎★ ❒⬥⬝⬝

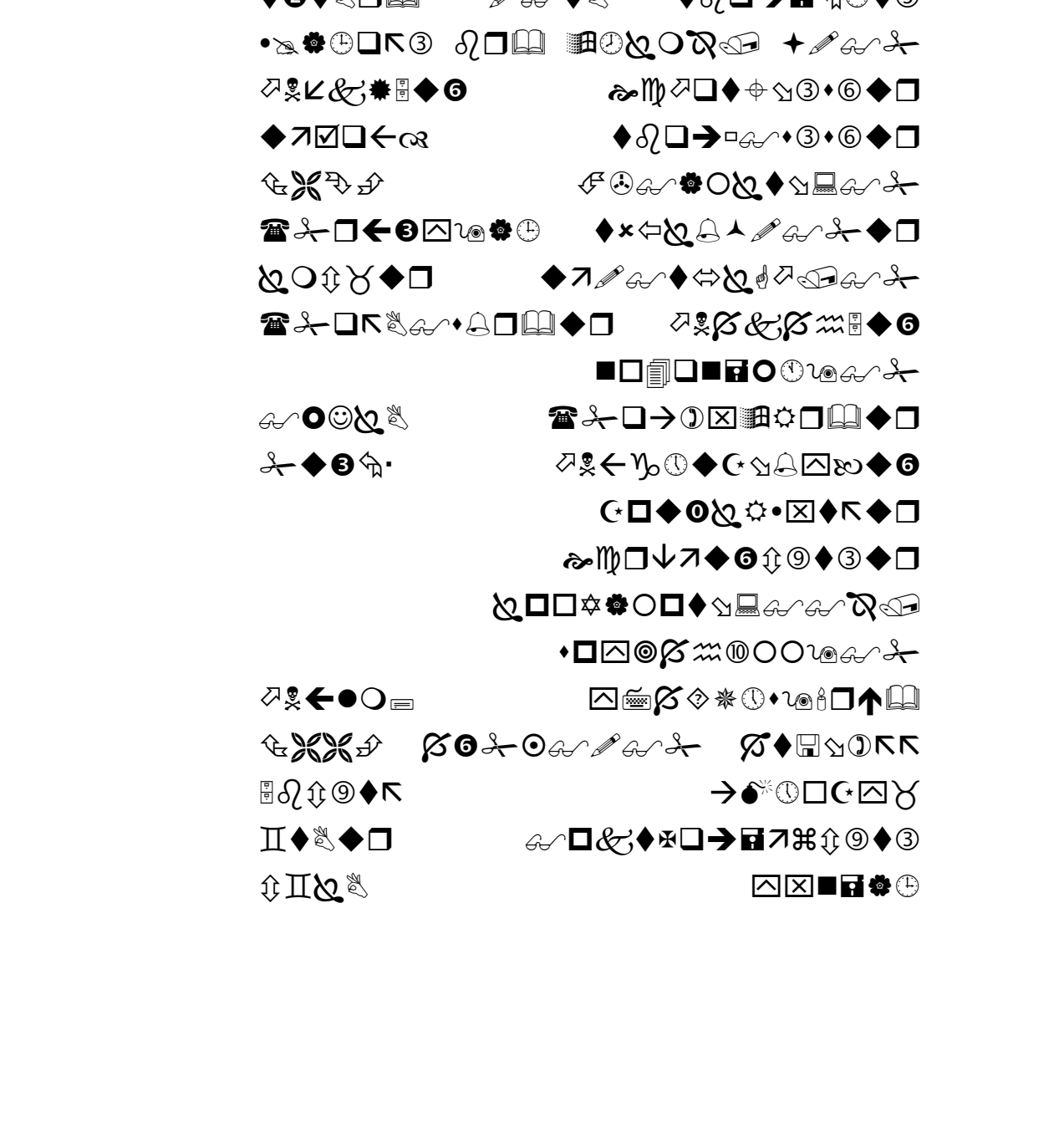

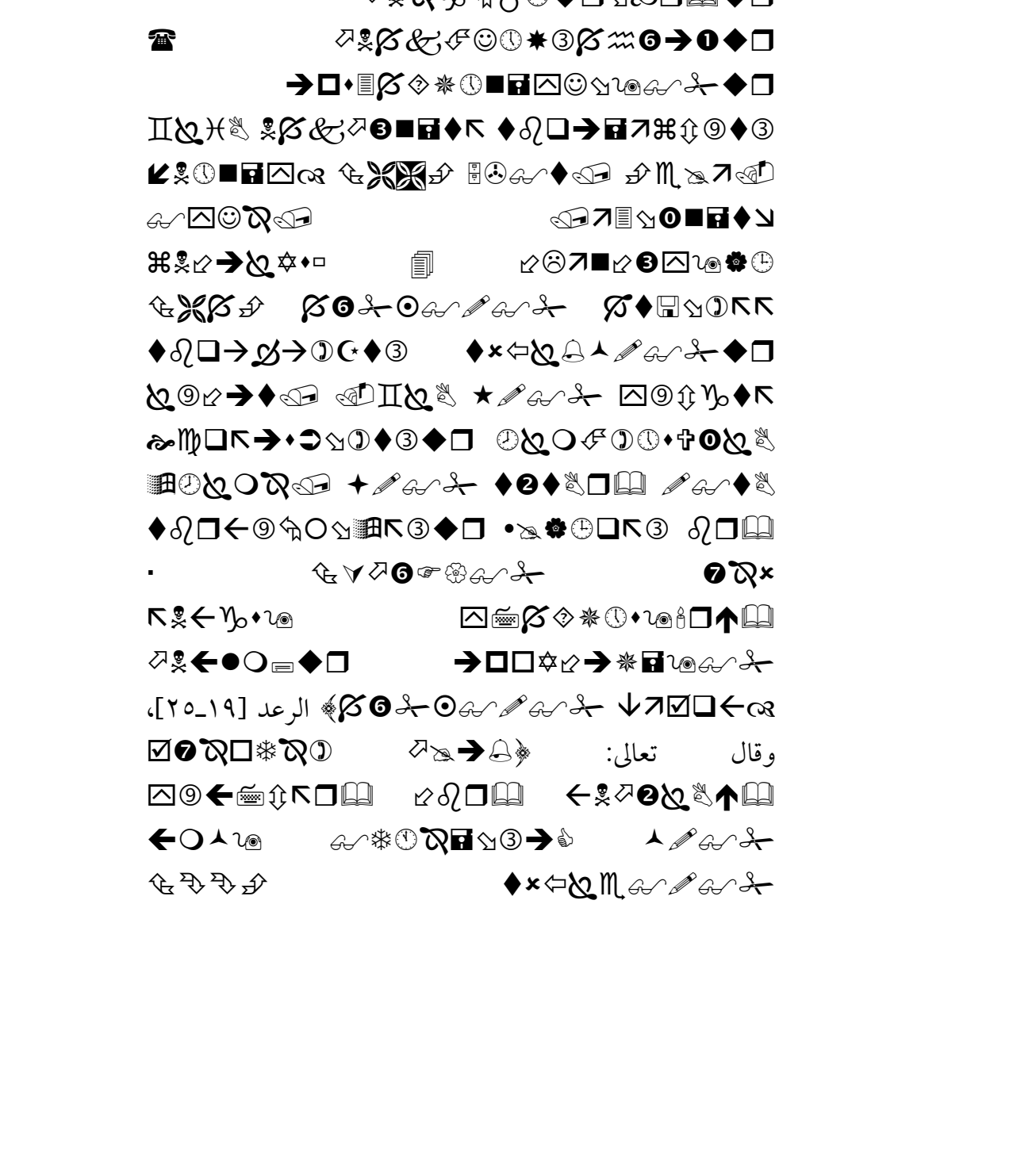

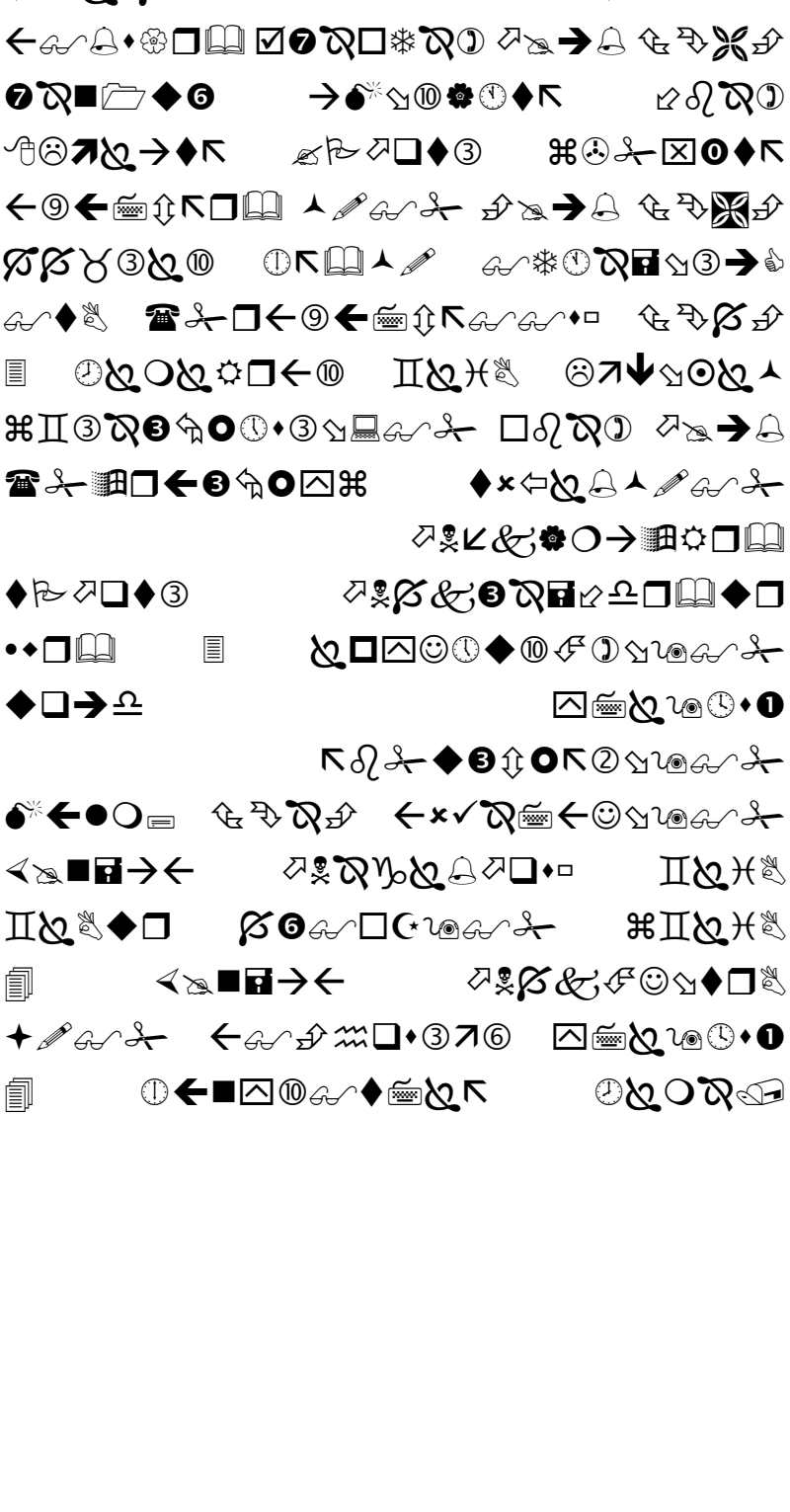

الزمر [١١ـ١٨]. والله أعلم.

❁❁❁

السادس والعشرون

فقه التيسير والمنهجية في الاستدلال

إن من أبرز سمات الشخصية الإسلامية صُدُورُها عن البراهين والأدلة في كل ما تود أن تعمله أو تقوم به في كل شأن من شؤونها وهذا هو سر تميزها وعزتها.

وإنما ارتقت الأمة إلى منزلة الشهادة على الأمم من هذه الحيثية فالأمة الخاتمة الشاهدة على الأمم لها مميزات ومقومات فهي ليست كسائر الأمم فضلاً وعلماً وعملاً، فإذا انضاف إلى ذلك شرف كتابها العزيز ورسولها ﷺ ازداد الأمر وضوحاً ورسوخاً وجلاءً.

بيد إن المتأمل لأحوال الأمة الإسلامية في هذه العصور المتأخرة ـ عصور الفتن من شهوات وشبهات ـ يجد أن بعض أفرادها قد تخلو عن هذا الأصل العظيم وهذا التراث المجيد الذي سطره سلفنا الصالحين بمداد من نور(١)، فأصبحنا نرى بعضًا من العباد قادته انهزاميته ـ إما لضعف إيمانه أو لخلل في شخصيته أو لضغط واقعه أو لما يراه من تسلط الأعداء ـ إلى لوي أعناق النصوص والتحايل عليها والافتراء على الله ورسوله في تأويلها وتحْمِيلها ما لا تحتمله، تحت غطاء منهج التيسير وهو في الحقيقة منهجٌ للتَسْيير أعني مسايرة ومجاراة

(١) لمزيد من المعرفة والإلمام بمميزات هذه الأمة ومقوماتها راجع كتابي: (الاستعلاء بالإيمان) فإنه نافع ومفيد في بابه، فلله الحمد والفضل والمنة.

الواقع الأليم المُر الذي تعيشه الأمة في هذا الزمان. حتى صار بعضهم يقول مصرحـًا أن الدين هو فقه الممكن أي ما يمكن أن نعمله هو الدين الذي يجب أن ندين الله به. عياذا بالله من هذا الافتراء على الله ورسوله.

كما أن هناك آخرين أخذوا يعتمدون منهجًا من نوع غريب دخيل على الأمة في طريقة الاستدلال وفهم النصوص ليس في الفروع فحسب بل في أصول هذا الدين ومبانيه الكبار، فصاروا يتنكرون لعلوم الصحابة والسلف الصالحين ويشككون في فهمهم لهذا الدين تحت دعوى أنهم عايشوا واقعًا غير واقعنا وحالاً غير حالنا مع أن المسألة واحدة والقضايا متشابهة؛ ففرحوا بما عندهم من التصورات الفاسدة لحقائق الإسلام، وعلومهم المشوهة والتي عصفت بها رياح الهوى وحظوظ النفوس الأمارة بالسوء، ويجعلون واقع الأمة المُر سببا ومبررًا لهذه التصرفات السيئة والمعاملات الخاطئة الآثمة، مع أن الشارع الحكيم قد أرشد الأمة إلى المخرج عند الاختلاف وظهور الفتن، ولكن المشكلة أن هناك انفصامًا بين علوم هؤلاء وعلوم الصحابة والتابعين والأئمة المهديين؛ لأن السلف كانوا يتكلمون من منطلق مبادئ ثابتة ومعتقدات راسخة مبنية على الفهم العميق لنصوص الكتاب والسنة موافقة لمقاصد الشريعة العامة، لا تتغير ولا تتبدل مع الأهواء ورياح التغيير والتبديل، فكل شيء واضح بَيِّن كما قال تعالى:

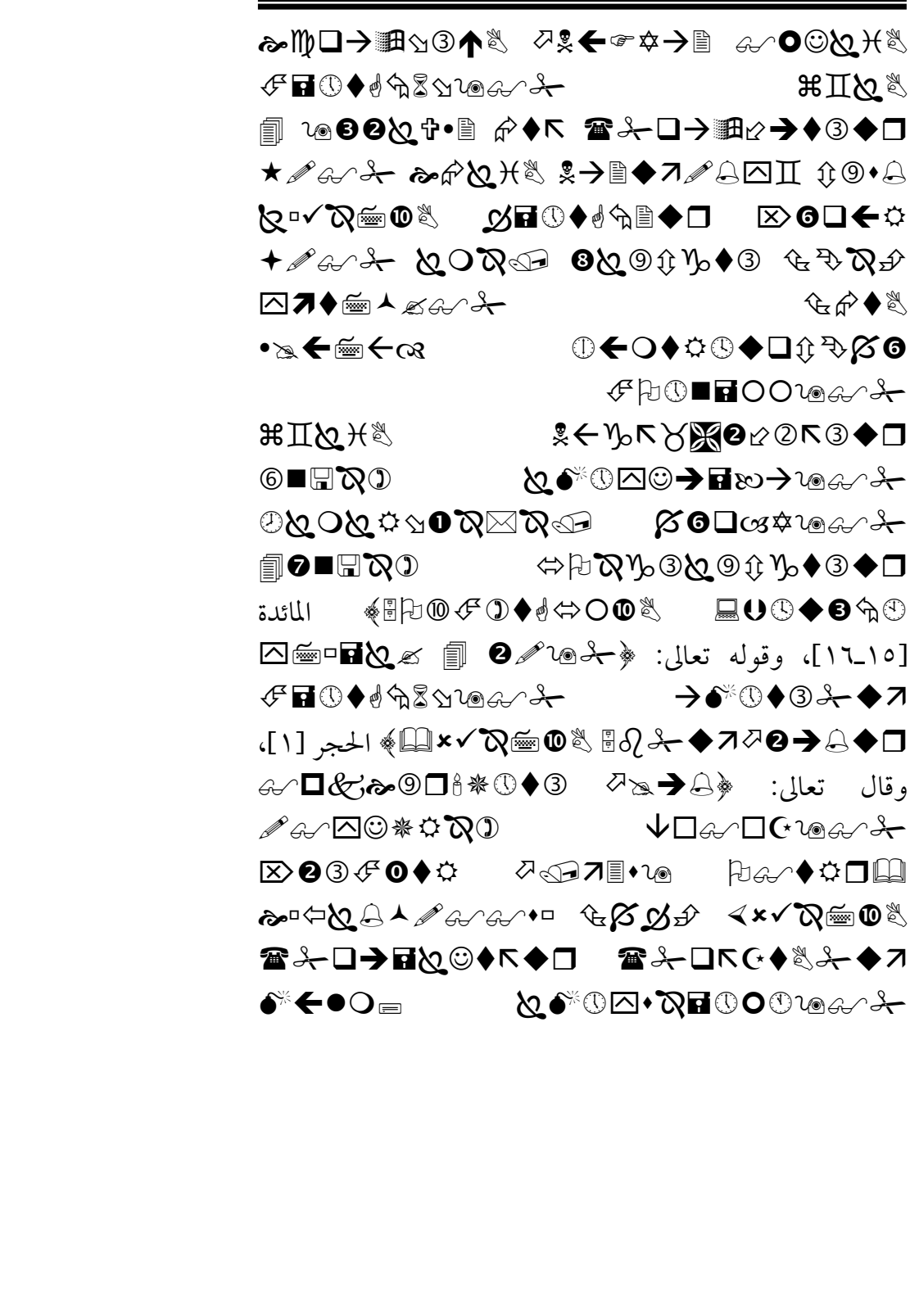

الحج [٤٩ـ٥١].@@

في حين أن هؤلاء المنبطحين ليسوا كذلك؛ ولهذا كانت الهُوَّةُ سحيقة والفجوة كبيرة بين القوم وسلفنا الصالحين والأمر كما قال تعالى:

الرعد [١٧ـ١٨]، وقال تعالى:

آل عمران [١٧٩]، وقال تعالى:

العنكبوت [١ـ٣]، فكانت الفتنة وكان الابتلاء ليظهر كل فريق وليحصل التَمَيُّز والتَّزْييل الذي يريده الله تبارك وتعالى من عباده.

أيها المسلمون لقد أرشد الشارع الحكيم إلى أمر عظيم لو أخذت به الأمة لكانت النجاة وذلك في مثل قوله تبارك وتعالى:

النساء [٥٩]، وقوله تعالى:

النساء [١١٥]، وقوله تعالى:

النساء [٦٤ ـ ٧٠].

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو نجيح العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع الطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا! فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**» رواه أحمد وأبو داود وابن

ماجة والترمذي، وقال حديثٌ حسنٌ صحيح [١] .

---

١ – قلت: وكون مداره على عبد الرحمن بن عمرو السلمي لا يضر ، والقول بجهالة حال عبد الرحمن فيه نظر بل هو خطأ، فقد صحح خبره هذا الترمذي وابن حبان والحاكم في المستدرك والذهبي،وذكره مسلمة في الطبقة الأولى من التابعين، وقد روى عنه ثلاث ثقاة خالد بن معدان وضمرة بن حبيب الشامي وعبد الأعلى بن هلال كما قال البخاري في التاريخ الكبير:(عبد الرحمن بن عمرو السلمي سمع عرباض بن سارية سمع منه خالد بن معدان وضمرة بن حبيب الشامي وروى عنه عبد الأعلى بن هلال)ا.هـ. وعده دحيم من الأكابر في الرواية عن العرباض بن سارية ﷺ كما قال المزي في تهذيب الكمال نقلا عن دحيم:(والعرباض قديم الموت، روى عنه الأكابر:عبد الرحمن بن عمرو السلمي، وجبير بن نفير، وهذه الطبقة).ا.هـ. وقال ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة:(عبد الرحمن بن عمرو السلمي تابعي معروف).ا.هـ. وجاءت لعبدرحمن متابعة من حجر بن حجر الكلاعي كما في رواية أحمد وابن حبان قال ابن حجر في التهذيب عن حجر بن حجر:(أخرج الحاكم حديثه ، وقال:كان من الثقات، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال ابن القطان:لا يعرف)ا.هـ. قلت:وقول ابن القطان فيه نظر فقد عرفه غيره. قلت:وجاء لعبد الرحمن متابعة أخرى من يحيى بن أبي المطاع لا بأس بها في سنن ابن ماجه من طريق عبد الله بن العلاء (يعني ابن زبر) حدثني يحيى بن أبي المطاع قال:سمعت العرباض ابن سارية يقول.... فذكر الخبر. وابن أبي المطاوع صدوق ولكن أشار دحيم إلى احتمال الانقطاع بينه وبين العرباض ﷺ وإن كان قد صرح بالسماع هنا. ورواية ضمرة بن حبيب في المستدرك من طريق عبد الرحمن

إذن هذا هو المخرج في الرجوع الصادق للكتاب والسنة على فهم سلف الأمة فليس الشأن أن تستدل، فإن المُبْطِل لا يعدم استدلالاً، ولكن الشأن في الرد إلى فهوم السلف وعلومهم.

أما التنصل والتحايل وعدم الرد إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة فهذه هي الورطة والمصيبة، والداء العضال الذي وقع فيه بعض أفراد هذه الأمة، ولهذا كثرت الحيرة في هذا الزمان من جراء كثرة الاختلاف إلا من رحم الله ممن أخذوا على أنفسهم أن يعودوا من قريب إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على فهم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والعشرة المبشرين بالجنة، والصحابة الكرام سادات الأولياء والصالحين، ثم الأمة المهديين السائرين على نهجهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فمن أبى فإن الله تعالى قد شنع على أقوام في كتابه وعرَّض بنفاقهم وشكهم وريبهم فقال جل من قائل عليمًا:

ـ يعني ابن المهدي ـ عن معاوية بن صالح عن ضمرة بن حبيب عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي : أنه سمع العرباض بن سارية قال....فذكره.

قلت:فهذا خبر جيد الإسناد لا يقل عن مرويات عمرو بن شعيب وبهز بن حكيم ومحمد بن عبد الله بن عقيل ومحمد بن عجلان ومحمد بن إسحاق ونحوهم. وقد تلقى الأئمة هذا الخبر بالقبول ولم يطعن فيه أحد من الأكابر حتى قال الذهبي في تلخيصه على مستدرك الحاكم :(صحيح ليس له علة).ا.هـ.، وقال مرة أخرى:(على شرطهما ولا أعرف له علة)ا.هـ.

النور [٤٧_٥٢].

فيا أمة الإسلام، لا نجاة لنا إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، عندها تجتمع الكلمة وتتوحد المرجعية وتتحد الأمة فيعزها الله وينصرها، فإن هذه الأمة لن تصلح إلا بما صلح به أولها. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

السابع والعشرون

الفرق بين الخوارج والتكفير

إن هذه الألفاظ حصل فيها خلط رهيب حتى على مستوى بعض أهل العلم ممن تأثر بمذهب الإرجاء الخبيث، حتى أصبحنا نرى ونسمع من هؤلاء من يقول بمثل قول المفسدين في الأرض، وذلك ببث ما يسمّى بمحاربة التكفير، وهو يظن أنه إنما يحارب مذهب الخوارج الخبيث، وهذا ضرب من الجهل البيِّن بالمعاني والألفاظ والدلالات الشرعية، والسؤال الذي يطرح نفسه لهؤلاء وغيرهم هو :

هل كل التكفيريين من الخوارج؟. وبمعنى آخر : هل كل من كفر فهو من الخوارج؟!!.

فعلينا إذن أن نعلم عباد الله أن التكفير لفظة أتقن العدو التلاعب بها، بل وعلى أيدي أقوام هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا وبعضهم جثمان أنس في قلوب شياطين نسأل الله العافية والسلامة دعاة على أبواب جهنم. كما في الصحيحين واللفظ للبخاري في حديث حذيفة الطويل وفيه:"قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»....الحديث. وفي لفظ لمسلم:"قُلْتُ:هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟. قَالَ:«نَعَمْ». قُلْتُ:فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ

الْخَيْرِ شَرٌّ؟. قَالَ:«نَعَمْ». قُلْتُ:كَيْفَ؟. قَالَ:«يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ».....الحديث.

ومن شدة ما أرجف به هؤلاء وتلاعبوا بهذه اللفظة (التكفير) صار بعض العامة ما أن يسمع هذه اللفظة حتى يفر وينفر لماذا؟!.

لأن التلبيس والخلط الرهيب قد وقع في هذا المصطلح الشرعي، فَغُيِّب كثيرٌ من المسلمين عن حقيقته حتى تنكروا له وتبرؤوا منه. عياذا بالله من الخذلان.

أَنَفِرُّ من لفظ شرعي؟! أَنَنْفِرُ من مبدأ إسلامي؟!!. لكن المسلمين اليوم يعيش بعضهم غيابا عن هذه الحقائق، حتى أعتقدوا أن التفكير محرم في دين الله مطلقاً، وما علم هؤلاء أن التفكير موجود في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال الله عز وجل عن بعض أصحاب نبيه ﷺ الذين انطلقوا معه في أبعد الغزوات على الإطلاق في جيش العسرة، في غزوة تبوك، فلما قفوا تتكلم بعض من كان في هذه الغزوة بكلمات مرقوا بها من الدين، حيث استهزؤا فيها بالقراء فقالوا:(والله ما رأينا مثل قارئنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء)، فأنزل الله تعالى فيهم كتاباً يُتلى إلى يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المطففين (٦).

قال الله عز وجل:﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَّ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهَّ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ

كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ التوبة (٦٤-٦٦). وقال تعالى:﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة/ ٧٤]، وقال تعالى:﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل/ ١٠٦].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (ج ٧ - ص ٢٢٠):(قال الله تعالى:﴿إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه فإنه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن قيل فقد قال تعالى:﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ قيل وهذا موافق لأولها فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرا وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدرا وهى كفر وقد دل على ذلك قوله تعالى:﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون

هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام)ا.هـ.

فكلام ابن تيمية معناه:(فهؤلاء شهد الله لهم بالإيمان من فوق سبع سموات وأكفرهم من فوق سبع سموات) فهذا حكم شرعي عباد الله.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر، قال النبي ﷺ:"إذا قال الرجل لصاحبه ياكافر باء بها أحدهما" وفي رواية (فإن كان كذلك وإلاّ حارت عليه) والعجيب أنهم يحتجون بهذا الحديث لنفي التكفير مع أنه حجة في إثبات التكفير، فالنبي ﷺ هنا يقول، إذا قال: (لصاحبه ياكافر)، فالممنوع هنا هو إيقاع التكفير هكذا جزافا بلا زمام ولا خطام بلا دليل ولا بينة ولا برهان، وعليه فيكون معنى هذا الحديث (لا تقل لمسلم يا كافر إلا إذا أتي مكفرا وأقمت عليه الحجج والبراهين وأبنت الحجة والمحجة ثمّ بعد ذلك يجوز التكفير إذا تحقق ذلك)، وهذا هو المُسمَّى عند أهل العلم بإنفاذ الوعيد أو بتنفيذ الحكم على العامل، فإنَّ السلف يفرقون بين النوع والعين فيقولون: من فعل كذا كفر بالله تعالى، وهل هذا يعني أن الذي فعله كافر مباشرة؟!. كلا بل يقولون: لا نُكفره حتى نقيم عليه الحجة بتوفر الشروط وانتفاء الموانع، توفر شروط الكفر وانتفاء الموانع التي تعذره من أن يكفر كالتأويل المعتبر والجهل المعتبر أو الخطأ أو النسيان أو الإكراه أو غير ذلك كما قال الرجل: (اللهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك)، قال الله تعالى: (أخطأ عبدي من شدة الفرح) فهذا القول كفر بالله عز وجل فلو أن إنساناً الآن قاصداً مريداً قال لله عز وجلّ: [اللهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك] لكان كافراً بإجماع المسلمين لكنه لم يكفر في هذه الحالة لماذا؟ لأنه أخطأ من شدة الفرح.

فالتكفير حكم شرعي لبسّ أعداؤنا علينا فيه،

أيها المسلمون، قد كفّر أئمة الدين، فهذا الإمام الشافعي المطلبي كفّر حفص الفرد، وهذا الإمام أحمد كفر ابن أبي دؤاد وهذا ابن القيم ينقل في نونيته عن أئمة الدين تكفيرهم الجهمية.

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام رواه عنهم بل قد رواه قبله الطبراني

فهذا حكم شرعي عباد الله لا يجوز لنا أن نفر منه أو نتنكر له بحال، وإنما نفر من قول الخوارج لا من التكفير، وشتان تماماً بين قضية التكفير وقضية الخوارج.

من هم الخوارج؟!.

الخوارج هم الذين كفروا المسلمين بآحاد الذنوب والمعاصي التي لم يسمها الله تعالى ولا رسوله ﷺ كفراً أو شركاً أو نفاقاً أكبراً، فعمدوا إلى شارب الخمر فقالوا أنت كافر، وعمدوا إلى الزاني فقالوا أنت كافر، وعمدوا إلى المرابي فقالوا أنت كافر، وعمدوا إلى عاق الوالدين فقالوا أنت كافر، وعمدوا إلى السارق فقالوا أنت كافر وهكذا فكفروا عصاة الموحدين بذنوب لم يسمّها الله عز وجل شركاً ولا كفراً ولا نفاقاً أكبراً، فكانوا هم الخوارج الذين حذر منهم النبي عليه الصلاة والسلام وقال عن ذي الخويصرة: (يخرج من ضئضئ هذا [أي من نسله] أقوامٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وقراءتكم مع قراءتهم يمرقون من

الدين كما يمرق السهم من الرمية)، الحديث متفق على صحته.

هذا الذي نَحْذَرُ منه ونُحَذِّرُ منه، وهذا الذي يجب أن نَفِرَّ منه ونُنَفِّرَ عنه، قول الخوارج وفعل الخوارج.

ولكن علينا ألا ننسى في خضم ذلك أنه وفي مقابلة الخوارج نبتت نابتة المرجئة الذين يحاربون التكفير على إطلاقه، ويمنعون منه جملة وتفصيلا بدعوى أن كل من نطق بالشهادتين لا يمكن أن يكفر بأي عمل نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان والضلال المبين.

وإنما أهل السنة يحاربون التكفير على إطلاقه وإنما أهل السنة يحاربون التكفير بنوعين:

(النوع الأول): تكفير الخوارج حيث أنهم كفروا من ليس بكافر وأخرجوا من دائرة الإسلام عصاة الموحدين، وأحاديث الشفاعة ترد عليهم وإن الله تعالى يخرج من النار جميع عصاة الموحدين وبعضهم لا يدخلون النار أصلاً يتغمدهم الله برحمته أو يقبل فيهم شفاعة الشافعين فبعض عصاة الموحدين يدخلون النار يقيناً ولكن مآلهم إلى الجنة وبعضهم يعفو الله عنهم ويدخلهم الجنة، إذاً هذا النوع هو الذي يحارب تكفير الخوارج.

(النوع الثاني): تكفير المعين الذي لم تنطبق عليه الشروط توجد عنده الموانع التي تمنع التكفير.

هذا أيضاً يحاربه أهل السنة والجماعة ولهذا يقولون أنّ قضية تنزيل الأحكام على المعينين لا يقوم بها إلاّ العلماء الراسخون في العلم، الذين يستطيعون أن يقيموا حجة الله عز وجل وأن يتأكد من توفر الشروط وإنتفاء الموانع لكي ينزل الحكم على هذا المعين أمّا التكفير بضوابطه

الشرعية فهو دين يجب أن يدين الله عز وجل به كل آمن بالله ورسوله ﷺ هذا حكم مقرر في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

لماذا يسعى الأعداء في تشويه هذا المفهوم، مفهوم التكفير بين المسلمين قرأتُ في هذا المجال وخلصتُ أن مرادهم من تشويه هذا المعنى الشرعي وزعزعة ثقة الناس فيه بغرض إلغاء حد الردة وتغيب نواقض الإسلام وذكروا إن من أبرز الشعارات التي ترفع اليوم في ذلك تنصيبهم لرجل كان مسلماً في يوم من الأيام وارتد، على ولاية أمريكا رسالة مفتوحة للعالم أن حد الردة غير موجود وأن الإنسان له أن يقول ما يشاء وليس هناك تكفير أصلاً، وأن نواقض الإسلام التي يذكرونها هذه لا محل في العالم الجديد واليوم أصبحنا نسمع في السودان وللأسف الشديد من بعض من يُسمى بالزعماء السياسيين يبشر الأمة للأسف الشديد بخبالٍ ووبال، أنه إذا أمسك بذمام الأمور في هذه البلاد أنه سيلغي حد الردة. إذاً تشويه مفهوم التكفير المراد به هذين الأمرين إلغاء حد الردة، وإلغاء ما يُسمَّى بنواقض الطهارة.

علينا عباد الله أن نحذر وأن نعلم أننا مأمورون بنشر هذا العلم وبنشر هذا الدين وإنّا مأمورون ببيان حقائقه يرضى من يرضى ويسخط من يسخط وقد بشرنا النبي ﷺ كما في الصحيحين: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم)

ولا يهلك الناس حتى يكون العلم سراً، ولا يهلك الناس حتى يتلاعب بعض البسطاء والسذج بحقائق الإسلام وربما يكونون من المغفلين الناقعين الذين يستعلمهم العدم من حيث لا يشعرون أو ربما كانوا من الذين يطعنون في الإسلام الطعنة النجلاء تهلك الأخضر واليابس نسأل الله العافية والسلامة وعلى العبد أن يلتفت في خاصة نفسه إلى رضوان ربه سبحانه وتعالى وليعلم أنّ الناس لن ينفعوه ولن يضروه والجنة ليست

بأيديهم ودفع النار ليس إليهم، بل الجنة عند الله والنجاة من النار عند الله فليسعى كل واحد منّا إلى رضوان الله تبارك وتعالى.

الثامن والعشرون

في معنى الحكم والتشريع

إن هذه المسألة مما طال فيها الكلام وكثر من المعاصرين بين مقرر وناف، فمن قائل بأن المشرع من العباد الذي يحكم بالطاغوت –كلا أو بعضا– في رقاب العباد والبلاد ويحمل الناس على ذلك بالحديد والنار ليس بكافر الكفر الأكبر وإنما وقع فقط في الكفر الأصغر، وآخرون قالوا بأن التشريع حق محض لله تبارك وتعالى وعبادة من أجل العبادت فمن صرفها لغير الله تعالى أو نازع الرب فيها فقد أتى ناقضا من نواقض الإسلام بوقوعه في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، ويحتجون بالكتاب والسنة والإجماع.

والذي ينبغي أن نعلمه أن تحرير هذه المسألة يعتبر من المهمات ومن الأصول الكبار المتعلقة بتوحيد الله تعالى الذي هو حق الله على العبيد، وإن المتأمل في كلام وكتابات الذين ينفون الشرك الأكبر عن المشرع يجنحون إلى الخوف على حقوق المخلوقين ومتعلقاتهم الحياتية، ويتحدثون عن الفتن التي تحصل من جراء القول بذلك، بينما الذين يقررون أن التشريع من دون الله تعالى أو مع الله تعالى هو من الكفر والشرك الأكبر إنما يتكلمون ويدافعون عن حق الله تبارك وتعالى، وهذا هو الواجب على كل موحد أن

يقدم حق الله تبارك وتعالى على جميع الحقوق على الإطلاق، وبهذا بعث الأنبياء والمرسلون حيث إنهم بعثوا في أقوام انتشرت فيهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن من سلب للأموال وسفك للدماء وهتك للأعراض وغير ذلك من البلايا والطوام العظام ومع ذلك كله لم يلتفت الأنبياء إلى ذلك في إبان دعوتهم وإنما انشغلوا بتقرير حق المولى تبارك وتعالى كما قال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}. بل كان الواحد منهم عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم يهدد بالتعذيب والنكال فلا يلتفت إلى نفسه أبدا وإنما يغار على حق ربه تبارك وتعالى كما قال تعالى:}قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ{٨٧} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{٨٨} وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ{٨٩} وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ{٩٠} قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ{٩١} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{٩٢} وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ{٩٣} وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٩٤} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا

بَعِدَتْ ثَمُودُ}. بل وقرر الله تعالى أن الفتنة الحقيقية هي الفتنة بالوقوع في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر كما قال تعالى:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ} وقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

فما هناك مصيبة تحل بالعباد والبلاد هي أعظم من مصيبة الدين، فكل فتنة مهما عظمت تبقى أبدا دون فتنة الدين. ولكننا نجد لهذه الفتن في عالم اليوم كثيرا من البواكي بيد أن فتنة الشرك التي هي تضييع لحق المولى تبارك وتعالى لا بواكي لها إلا من رحم الله وما أقلهم اليوم، في زمان تطارد فيه الوثنية التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها.

وعلينا أن نعلم أن أحد أعظم الأصول التي ينبني عليها الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر هو شرك التشريع، وذلك سواء على مستوى ما يعرف بشرك القبور، أو ما يعرف بشرك القصور أو شرك الحاكمية، أو الشرك التقليدي والشرك السياسي، ولا مشاح في الاصطلاح إذا علم وحرر المعنى المراد.

وذلك أن أصل ذلك يكمن في تخويل المخلوق حق التشريع لقومه أو للبلاد والعباد، بل ليس بغريب إن قلنا إن سائر أنواع الشرك هو فرع عن الشرك في المعظمين عند الناس بتشريعاتهم الجاهلية، بمعنى أن الناس لما

ظنوا أن المعظم عندهم من حقه أن يشرع ويمنهج للناس؛ وقع هذا الفساد العريض في الأرض، فشرع طواغيت الأرض لأتباعهم أنواعا من العبادات والقربات والطقوس والصلوات والمواسم والأعياد ونحو ذلك من التشريعات الجاهلية؛ فقبل الناس منهم ذلك لاعتقادهم استحقاق هؤلاء أن يفعلوا ذلك، ونسوا أن التشريع إنما هو لله الواحد القهر لا شريك له أبدا: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب لعالمين}، وأن المخلوق مهما بلغ من المنزلة والمكانة سواء عند الله تعالى أو عند الناس فلا يجوز له بحال أن يشرع للناس شيئا من التشريعات الجاهلية المعارضة لشرع الله رب العالمين، وإلا كانوا بهذا الاعتبار قد اتخذوا هؤلاء المشرعين أربابا من دون الله تعالى كما قال تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فمن شرع فقد نصب نفسه ربا للناس بالتشريع.

واعتبر بقول الله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}، وقوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {وَجَعَلُواْ للّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا للّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ للّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{١٣٦} وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{١٣٧} وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ

اسْمَ اللهّ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{١٣٨} وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ{١٣٩} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاء عَلَى اللهّ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}، وقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من طريق ابْنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ إِنَّ الْبَحِيرَةَ الَّتِى يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلاَ يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا السَّائِبَةُ الَّتِى كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَىْءٌ. وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ :"رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِىَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِى النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوبَ".

وانسحب ذلك على ما يعرف بالشرك السياسي أو شرك الحاكمية، وهذا أمر طبيعي لمن تأمل خطوات الشيطان التي يسعى جاهدا بها لإيقاع الناس في أعظم ذنب على الإطلاق وهو الشرك بالله تعالى، فلما ساغ عند هؤلاء أن يمنحوا حق التشريع لغير الله تعالى وقبلوا ذلك من هؤلاء الطواغيت؛ جر ذلك إلى التشريع في السياسة والاقتصاد والحدود والقضاء والحقوق إلى غير ذلك مما نازع فيه هؤلاء الطواغيت المشرعون الرب تبارك وتعالى في أخص خصائصه وفي صفة محكمة من صفاته تبارك وتعالى ألا وهي صفة التشريع والحكم.

ولهذا تكاثرت النصوص الدالة على أن التشريع هو حق محض لله تعالى وأن من صرف ذلك الحق لغير الله تبارك وتعالى فهو مشرك كافر، وهذا مما لا خلاف فيه أبدا في القرون الثلاثة المفضلة إلا على طريقة الجهمية

وأشباههم من المرجئة المفسدين في الأرض، الذين يعظمون حقوق المخلوقين ولا يلتفتون إلى حق الله رب العالمين تبارك وتعالى، أو من اغتر بأقوال بعضهم من المنتسبين للسنة والجماعة، وسأذكر بعض هذه النصوص إضافة إلى ما تقدم ذكره من قبل على سبيل التذكير لا الحصر تتميما للفائدة وبيانا لخطورة هذه المسألة التي تهاون بها بعض المسلمين هدانا الله تعالى وإياهم:

قال تعالى: {قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً}، وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}، وقال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، وقال تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}، وقال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ}.

ومن عجائب هذا الزمان أن يُخَلِّطَ بعض الموحدين في أبواب التوحيد فترى بعضهم يقول بأن الطواف حول القبور والاعتقاد في المقبور والأقطاب والأغواث والأولياء والصالحين أنهم يفرجون الكربات

ويغيثون اللهفات ويقضون الحاجات بما في ذلك رزق الولد وأنهم يعلمون الغيب وينزلون الغيث ويتصرفون في ملكوت السماوات والأرض يقولون إن هؤلاء قد وقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر في حين أنهم يقولون إن الذين وقعوا في شرك التشريع وحكموا في رقاب العباد والبلاد بحكم الطاغوت ـ وحملوا الناس على ذلك بالحديد والنار، بل وعدوا الخروج على ذلك فتنة عمياء بكماء صماء، وخروجا على القانون وانتهاكا لسيادة الدولة وقدحا في الحاكم وتنقصا له، وهم على استعداد تام أن يقاتلوا لإقامة أحكامهم الطاغوتية التي جلبوها من شياطين الإنس من عباد الصليب أو عباد الفروج والأبقار والفئران أو تلك التي ابتكروها من عند أنفسهم مما أوحى به الشيطان الرجيم إليهم ويخلطون معها شيئا من الأحكام الإسلامية لتروج على البسطاء والسذج وليلتبس حالهم على بعض من لا يميز من الموحدين المخدوعين ـ يقولون إن هؤلاء المشرعين والحاكمين بشريعة الطاغوت في رقاب الناس ليسوا بكفار ولا مشركين الكفر والشرك الأكبر. بل هو من الكفر والشرك الأصغر، بل هم عند بعضهم بمنزلة غيرهم من عصاة الموحدين الذين ما وقعوا إلا في المعاصي التي لا يكفر بها صاحبها كالزنا وشرب الخمر وأكل الربا والعقوق والسرقة ونحو ذلك من الذنوب التي لا تخرج صاحبها من ملة الإسلام إلا أن يستحلها أو يجحد أو يبغض حكم الله تعالى فيها، أو تكون عنده تلك الأحكام الربانية محل استدراك ونقد ونظر.

وليعلم هؤلاء أن من فرق بين شرك العبادة وشرك التشريع والطاعة فيه، فقد أتى جرما عظيما دالا على عدم فقه هؤلاء لحقائق التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. وهذا من طمس البصائر والعياذ بالله تعالى، بل إن بعض أهل العلم يرى أن شرك التشريع هو أغلظ من شرك العبادة؛ لأنه من

متعلقات الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، بينما شرك العبادة من متعلقات الألوهية كما قال بعضهم، والراجح أن الكل متداخل فالخلل في بعض التوحيد دال على خلل في غيره، والكل خطير كبير مخرج عن الملة عياذ بالله تعالى من الخذلان والهوان.

ولنذكر جملة من المسائل التي توضح هذا الباب وتبينه:

١- أن الكفر العملي منه الأكبر والأصغر بحسب نوع الكفر الذي تلبس به العبد ومن قال إن الكفر العملي كله من جنس الكفر الأصغر فقد ضل سواء السبيل وقال بقول الجهمية والمرجئة. قال العلامة ابْنُ القَيّم رحمه الله في كتاب الصلاة ص٥٥ :(وها هنا أصل آخر وهو أن الكفر نوعان؛ كفر عمل وكفر جحود وعناد، الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده). وقال العلامة حافظ الحكمي - رحمه الله - في (أعلام السنة المنشورة) ص١٨٢ : ((ونحن لم نُعرف الكفر الأصغر بالعملي مطلقاً ، بل بالعملي المحض الذي لم يستلزم الاعتقاد ولم يناقض قول القلب ولا عمله)).

٢- أنه لا يشترط في المكفرات العملية (من نوع الكفر الأكبر) الاستحلال ولا الاعتقاد؛ لأن الكفر العملي الأكبر الذي وقع فيه هو بذاته مكفر ناقل

عن الملة؛ فإذا انضاف إليه الاستحلال أو الجحود صار الكفر كفرين أو ثلاثة وقد يكون أكثر من ذلك فإنه قد يجتمع في العبد الواحد أكثر نوع من أنواع الكفر.

٣- أن اشتراط الاستحلال والجحود للحكم بوقوع الكفر الأكبر لا يكون إلا في المعاصي التي لا تبلغ حد الكفر أو الشرك أو النفاق الأكبر.

٤- أن من قال إن الكفر لا يكون إلا بالاعتقاد، أو إن الكفر العملي كله لا يخرج من الملة، أو إن الكفر لا يكون إلا بشرط الاستحلال، فقد قال بقول الجهمية وأخذ عنهم ذلك غلاة المرجئة. فإن أهل السنة يقولون:إن الكفر يكون بالاعتقادات والأقوال والأعمال. قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول:[ج١-ص٥١٣]:(و ذلك أن نقول:إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهرا وباطنا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلا له، أو كان ذاهلا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل. وقد قال الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهوية و هو أحد الأئمة يعدل بالشافعي و أحمد:[و قد أجمع المسلمون أن من سب نبيا من أنبياء الله، أو سب رسول الله عليه الصلاة والسلام، أو دفع شيئا مما أنزل الله، أو قتل نبيا من أنبياء الله، أنه كافرا بذلك، وإن كان مقرا بما أنزل الله].....إلى أن

قال:وهذا موضع لابد من تحريره ويجب أن يعلم أن القول بأن كفر الساب في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السب زلة منكرة و هفوة عظيمة ويرحم الله القاضي أبا يعلى قد ذكر في غير موضع ما يناقض ما قاله هنا وإنما وقع من وقع في هذه المهواة بما تلقوه من كلام طائفة من متأخري المتكلمين وهم الجهمية الإناث الذين ذهبوا مذهب الجهمية الأولى في أن الإيمان هو مجرد التصديق الذي في القلب وإن لم يقترن به قول اللسان ولم يقتض عملا في القلب ولا في الجوارح).ا.هـ وقال في مجموع الفتاوى:[ج٧-ص٢٧٣]:(قال تعالى:{ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} فاعترفوا واعتذروا؛ ولهذا قيل:{لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين} فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر. فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفرا وكان كفرا كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه وهكذا قال غير واحد من السلف)ا.هـ.

٥- أن حمل آية المائدة:{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ} على أنها في الكفر الأصغر فقط (وأن الإجماع منعقد على ذلك أو هو قول

أكثر أهل العلم وأن من قال بخلاف ذلك فهو من الخوارج القعدية ونحو ذلك) أن هذا القول خطأ واضح بين وقول عري عن التحقيق العلمي وهو داخل في جملة التلبيس والتلفيق للحقائق العلمية وإليك بيان ذلك: قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري [١٠/ ٣٤٦ وما بعدها]:((﴿هم الكافرون﴾ يقول:هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك من أنه عني به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه ذكر من قال ذلك.....وقال بعضهم: في بـ(الكافرين) أهل الإسلام وبـ(الظالمين) اليهود وبـ(الفاسقين) النصارى ذكر من قال ذلك ..... عن الشعبي قال: ﴿الكافرون﴾ في المسلمين و﴿الظالمون﴾ في اليهود و﴿الفاسقون﴾ في النصارى.....وقال آخرون:بل عني بذلك:كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ذكر من قال ذلك.....وقال آخرون:بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب وهي مراد بها جميع الناس مسلموهم وكفارهم ذكر من قال ذلك..... وعن إبراهيم قال:نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي لهذه الأمة بها، وعن الحسن في قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال: نزلت في

اليهود وهي علينا واجبة.....وعن علقمة و مسروق:أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال:من السحت قال فقالا:أفي الحكم؟ قال:"ذاك الكفر!" ثم تلا هذه الآية: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} .....عن السدي: {ومن لم يحكم بما أنزل الله} يقول:ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً وجار وهو يعلم فهو من الكافرين، وقال آخرون:معنى ذلك:ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فأما الظلم والفسق فهو للمقر به، ذكر من قال ذلك.....). وقال العلامة ابن القيم في مدارج السالكين:(ومنهم من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له ، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح....ومنهم من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله..... وهذا تأويل عبد العزيز الكناني وهو أيضاً بعيد... ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل حكاه البغوي عن العلماء عموماً ومنهم من تأولها على أهل الكتاب....وهو بعيد.....ومنهم من جعله كفراً ينقل عن الملة والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين)ا.هـ. فهذ أقوال تدل على إثبات الاختلاف في معنى الآية، فأين الإجماع؟؟ ومن هم الخوارج؟ أهو ابن مسعود ﷺ، أم الشعبي والنخعي والحسن والسدي؟!!. وأنت كما ترى أن ابن جرير رحمه الله نقل جملة من الأقوال

في تفسير هذه الآية، واحد منها فقط في الكفر الأصغر. فلو قال قائل: إن جمهور من فسر الآية حملها على الأكبر لكان مصيباً.

** ثم إنه من المهم التنبيه على أنه يسوغ للعبد إن كان يملك أدوات الاجتهاد أن يجتهد في مسألة (ما) ويختار قولاً معيناً، ولكنه ليس من حقه أبداً كتم الحقائق، وإخفاء النصوص وبترها، والتلاعب بعقول الأتباع، تلبيساً وتدليساً، فإن من علامات أهل السنة أنهم يقولون ما لهم وما عليهم بخلاف أهل البدع.

** ثم هنا أمر مهم أنك ترى واضحا جليا أن الإمام الطبري لما نقل الأقوال في هذه الآية لم يذكر أن أحدا من الأئمة فسرها بشرط الاستحلال. وهذه هي طريقة السلف جميعا، ما اشترطوا أبدا الاستحلال في المكفرات. فتأمل.

٦- أن آية المائدة حمالة وجوه من الحق ، فالاختلاف الوارد عن السلف في تفسير الآية هو من اختلاف التنوع لا التضاد، وذلك بحسب حال الحاكم ، فمن كان الشرع مستقرا عنده ولشرع الله تعالى السيادة والهيمنة على العباد والبلاد وهو المحكم فيهم في جميع المحاكم وجميع الأحوال في المعاملات والسياسة والاقتصاد والحدود والقضاء وغير ذلك، ثم جار هو في حكم ما فترك تنزيل الحكم على شخص معين كان عاصيا فاسقا بذلك

وهذا هو الكفر الأصغر المذكور في كلام السلف، فنفرق بين من يخالف الشرع لهوى مع استقرار الشرع والعمل به في سلطانه وبين من يشرع للناس، فأما إذا شرع للعباد حكما عاما يخالف حكم الله تعالى وجعله فيهم هديا وسنة وطريقة في مقابلة حكم الله تعالى الذي شرعه لعباده ولو في مسألة واحدة كان كافرا بذلك الكفر الأكبر، وكذلك إن رأى أن الحكم بالشرع المبدل الطاغوتي جائزا سائغا، أو رآه أفضل من شرع الله تعالى، أو قدمه على شرع الله تعالى فكل ذلك من الكفر الناقل عن الملة. ويا عجباً !! أي تقديم فوق أن يحمل الناس على ذلك بالحديد والنار، ويمتنع من تطبيق شرع الله الواحد القهار، ولو قوتل على ذلك الليل والنهار، ولو أراد أحدٌ أن يحكم بالشريعة في الناس في سلطان هذا الطاغوت الجبار؛ لاعتقله أو قتله بدعوى الخروج عن سيادة الدولة والقانون في وضح النهار!!. فأين سيادة الله و شرعه؟!!لكن الأمر كما قال الله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ للهِّ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُون}.

٧- أن علينا أن نعلم أنه ليست القضية في صحة أثر ابن عباس من عدمه في قوله :(كفر دون كفر) (وإن كان الصواب ضعفه فإن أمثل طرقه مدارها على هشام بن حجير وقد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين

وغيرهم، حتى قال على ابن المديني:قرأت على يحيى بن سعيد:حدثنا ابن جريج عن هشام بن حجير، فقال يحيى بن سعيد:خليق أن أدعه. قلت:أضرب على حديثه؟ قال:نعم.ا.هـ. قلت: وهناك علة أكبر من هذه وهي مخالفة هشام لمن هو أوثق منه بآلاف المرات ألا وهو عبد الله بن طاووس فقد روى هذا الأثر عن أبيه عن ابن عباس بلفظ مغاير لذلك ففي تفسير الطبري قال:(حدثنا هناد قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن معمر بن راشد عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال:هي به كفر وليس كفرا بالله وملائكته وكتبه ورسله". حدثني الحسن قال حدثنا أبو أسامة عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : قال رجل لابن عباس في هذه الآيات: {ومن لم يحكم بما أنزل الله} فمن فعل هذا فقد كفر؟ قال ابن عباس:إذا فعل ذلك فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وبكذا وكذا". حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال هي به كفر")ا.هـ. قلت:وباقي طرقه الأخرى أوهى من هذا وأنكر)، إنما القضية تكمن في أن آية المائدة حمالة وجوه (من الحق):فهي تحتمل الكفر الأصغر

والأكبر؛ ولهذا ذكر الطبري أثر ابن عباس كأحد الأقوال، وكذلك فعل ابن القيم كما سيأتي في كلامه. فمن شَرَّعَ فهو داخل في الكفر الأكبر، ومن طبق الشرع المبدل فهو واقع في الكفر الأكبر كذلك. ولا خلاف بين العلماء المتقدمين في ذلك، في القرون المفضلة.

٨- أن شرك التشريع ليس فيه هذا التفصيل الوارد في آية المائدة بل كله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، فالحاكم الذي هو هنا بمعنى المشرع أو المطيع في التشريع كالذي يجد الشرائع الطاغوتية فيحكم بها ويأمر الناس أن يتحاكموا إليها؛ ولهذا يذكره أهل العلم في الشرك والكفر الأكبر بدون تفصيل؛ لأن مرادهم الحكم الذي هو بمعنى التشريع والطاعة فيه، كما فعل ذلك شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب كما في الأصول الثلاثة عندما قال:قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

٩- أن التشريعات الطاغوتية وتبديل الشرائع الربانية كفر أكبر وإن لم يعتقد الجحود أو الاستحلال أو التفضيل أو التقديم أو التسويغ والتجويز ونحو ذلك من أعمال القلوب إذ هو كفر بذاته.

١٠- أن من أطاع المشرع الطاغوتي في ذلك التشريع بمعنى صار معاونا له في التشريعات الجاهلية وكذلك من قبل منه تلك التشريعات الطاغوتية مختار مريدا فهما في الحكم سواء، الكل واقع في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

١١- أنه لا فرق بين من أنشأ التشريعات الطاغوتية وبين من أتى بها من عند الطواغيت ونزلها على رقاب الناس وحكم وتحاكم إليها، فهما سواء من جهة وقوع الكل في الشرك الأكبر إلا أن كفر الذي أنشأها أشد وأغلظ من الآخر.

١٢- أن اشتراط أن المشرع لا يكفر إذا كان مقلدا لغيره كمن وجد تشريعا طاغوتيا فعمل به بدعوى أنه لم ينشئه، فهذا قول فاسد لا أصل له؛ وله لازم فاسد وهو أنه لا يكفر بهذا الاعتبار إلا إبليس؛ لأنه ما من مشرع بالطاغوت إلا والشيطان هو الذي أوحى إليه بذلك كما قال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِّ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لُمشْرِكُونَ}، وقال: {أَلَمْ أَعْهَدْ

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}، فالكل آخذ عن الشيطان الرجيم فهو شيخهم وإمامهم في هذه التشريعات الجاهلية نسأل الله العافية والسلامة.

١٣- أن تقيد كفر التشريع بأن يكون المشرع ممن ينسب ذلك التشريع الطاغوتي إلى الله تعالى، ويقولون إنه إنما كفر لأنه كذب على الله تعالى، وعليه فكفر المشرع عند هؤلاء بالتكذيب والكذب لا بالتشريع، فهذا قول ساقط سيء فاسد يدل على عدم فهم صاحبه لحقائق نواقض الإسلام، بل وعدم معرفته لحقائق التوحيد. والجواب على هؤلاء أن يقال:إن كفر الكذب على الله تعالى وكفر التكذيب لله تعالى كل واحد منهما كفر مستقل ولو لم يشرع، فالتشريع كفر مستقل وإن لم يَكْذِب صاحبه على الله تعالى وإن لم يُكَذِّب الله تعالى فقد كفر، فإن نسبه إلى الله تعالى ازداد كفرا، فقد سمى الله تعالى مجرد التشريع شركا كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، هذا الذي عليه السلف الصالح في القرون المفضلة ومن تبعهم بإحسان. فإن قال هذا حكم الله وهذا حكم الديوان وقع في الكفر الأكبر. وأشد منه كفرا من قال هذا حكم الله كذبا وافتراء

على الله. والكل مخرج من الملة. ثم إن المشرع في نفس الوقت قائل بالكذب؛ لأنه ادعى أن الحلال حرام والعكس فهو كاذب في قوله ذلك وإن لم ينسبه إلى الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}، فيكون هذا من الافتراء على الله تعالى؛ لأنه مفتئت على حق الله تعالى، حيث نصب نفسه مشرعا مع الله تعالى وهذا من أقبح أنواع الافتراء على الله ، فمن الذي خوله بذلك وأذن له؟!! ولهذا في كثير من آيات الكتاب العزيز يطالب الله تعالى أهل الإشراك أن يأتوا بسلطانهم وبراهينهم على ما يقولون ويعملون. كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ}. ثم إن المشرع مفتر كاذب أيضا من جهة كونه متشبع بما لم يعط حيث نصب نفسه مشرعا للناس من دون الله تعالى كما في الصحيحين عن أسماء رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ:"المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

١٤- أن التحليل والتحريم إذا كان من عند الله تعالى كان ذلك هو شرع الله تعالى المأمور باتباعه، وإذا كان من عند غير الله كان من شرع الشيطان فطاعته في ذلك عبادته، كما أن طاعة الله تعالى في شرعه هي عبادته،

فالعبادة هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فعلى من وقعت كان هو المعبود، والله تعالى يقول: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، ولهذا قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}؛ ولهذا قابل الشارع الحكيم بين الحنيفية والتشريعات الشيطانية الطاغوتية فقال كما في صحيح مسلم من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِى خُطْبَتِهِ:"أَلاَ إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِى يَوْمِى هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا.....الحديث"، والحنيفية هي ملة إبراهيم وهي توحيد الله تعالى وضدها الكفر والشرك والنفاق.

١٥- أنه إذا كان من اتبع الشرع المنسوخ الذي أصله من عند الله تعالى إلا أن الله تعالى نسخه يكون بذلك الاتباع كافرا بالله تعالى وهو من جنس ما وقع فيه اليهود والنصارى فكيف بمن بدل الشرع بقوانين البشر المخترعة فلا شك أنه أولى بالكفر من هؤلاء بل هو أكفر منهم عياذا بالله تعالى. بل

لو قال قائل أريد أن أعمل بالتوراة والأنجيل على فرض أنه وجد نسخة لم تحرف أو ببعض التشريعات التي لم يتلاعب بها الأحبار والرهبان لكان كافرا بالله تعالى بإجماع المسلمين. فكيف بحكم الطاغوت؟!!!!!! وكيف بالتشريعات الجاهلية التي ضربها الطواغيت على رقاب العباد وفرضوها على البلاد. قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{٤٨} وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{٤٩} أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}. وقال تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

١٦- أن من شرع كفر بهذا الفعل وإن لم يتمكن من إنفاذ تشريعاته الطاغوتية، فمجرد وضع نفسه في هذا المقام يوقعه في الشرك الأكبر، فمن شرع فقد خرج عن الملة وإن لم يحمل الناس على ذلك؛ لأن التشريع بذاته

كفر أكبر ناقل عن الملة. فإن أنفذه وقع في كفرين كفر التشريع وكفر إعمال هذا التشريع الطاغوتي.

١٧- أن الفرق بين المبتدع والمشرع، أن المبتدع يعتقد أن ذلك من الدين بينما المشرع يعلم أن ذلك حرام، وأنه ليس من الدين في شيء، كما أن المبتدع غالبا ما يفعل ذلك في خاصة نفسه أما المشرع فيجعله دستورا للناس. فالمبتدع يفعل ذلك متأولا أنه من الشرع ولهذا لم يكفر الإمام أحمد الخلفاء في زمانه مع أنهم كانوا يأمرون بالكفر الصراح المجمع عليه وهو القول بخلق القرآن؛ لأنهم كانوا يظنونه الحق وكان في علماء السوء من يفتيهم بذلك ويثبتهم عليه ويخوفهم من ضده. أما إذا بلغ المبتدع حد التشريع عالما أنه ليس من دين الله صار حكمه حكم المشرع فإذا شرع للناس صلاة معينة، أو أقوالا وأعمالا شركية ومواسم بدعية وجعلها سنة في أتباعه فهذا مشرع كذلك. وهو مثل ما كانت تحكم به العرب وأهل البوادي من سلومها العشائرية التي يضعها الكبراء والسادة فيهم فتصير هديا وطريقة لازمة لهم. قال الشاطبي في الاعتصام :(أن كل بدعة وإن قلت ـ تشريع زائد أو ناقص أو تغير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقا بما هو مشروع فيكون قادحا في المشروع ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامدا لكفر إذ الزيادة

والنقصان فيها أو التغيير ـ قل أو كثر ـ كفر فلا فرق بين ما قل منه وما كثر فمن فعل مثل ذلك بتأويل فاسد أو برأي غالط رآه أو ألحقه بالمشروع إذا لم تكفره لم يكن في حكمه فرق بين ما قل منه وما كثر لأن الجميع جناية لا تحملها الشريعة بقليل ولا بكثير)ا.هـ.

١٨- في أن معنى التبديل الذي يصير به العبد مشرعا مع الله تعالى أو من دون الله تعالى أن يضيف ويدخل في الشرع ما ليس منه إلغاء وإحلال أوتحليلا وتحريما أو زيادة ونقصانا سواء كان ذلك التبديل كليا أو جزئيا، إتباعا للهوى وطاعة للشياطين فهذا هو التبديل الطاغوتي.قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، وقال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ{٥٩} وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ}. وقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}.

١٩- أن وظيفة الحاكم الحقيقية هي أقامة شرع الله تعالى، كما قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}. قال ابن كثير في تفسيره:(ج٥- ص٣٥٦):(قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري:إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال -يعني: الحسن-: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلا ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وقال: {فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}، وقال: {وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا}ا.هـ. وقال أيضا في تفسيره (ج٧ - ص٦٢):(هذه

وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد)ا.هـ. وسيأتي في المنقولات كلام البيهقي في شعب الإيمان.

٢٠- أن التبديل والتشريع كفر أكبر سواء القليل منه والكثير فكلما ازداد تبديلا وتشريعا ازداد كفرا. فإن المناط الذي يكفر به في القليل هو بذاته الذي يكفر به في الكثير أو الكل. وهو التشريع. وكما أن العبادات لا تقبل التجزئة بحيث يكون بعضها لله والبعض الآخر للطاغوت، فكذلك التشريع إما أن يكون كله لله وإلا فلا فرق في التشريع الطاغوتي سواء كان كليا أو جزئيا، كما قال تعالى: {وَجَعَلُواْ للهِّ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا للهِّ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِّ وَمَا كَانَ للهِّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{١٣٦} وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللهُّ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{١٣٧} وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِّ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{١٣٨} وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ{١٣٩} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}.

٢١- أن جعل الاستحلال أو نسبة التشريع الطاغوتي لله أو أن يكون تبديلا كليا شروطا في كفر المشرع من دون الله تعالى قول باطل مبتدع لم يقل به أحد من الصحابة أوالتابعين أوالأئمة المهدين في القرون المفضلة أبدا. بل يجعلون التشريع الطاغوتي شركا أكبرا بذاته.

٢٢- أن اللوازم التي تكون مصاحبة للحكم الشرعي لا يسوغ لنا بحال من الأحوال إذا عجزنا عن التزامها والقيام بها لعجز أو ضعف أو فساد حال أن نعود على الحكم الشرعي بالنقض والتحريف ليوافق واقعنا المر. واللوازم إذا كان هناك ما يضبطها من النصوص الشرعية الأخرى وجب المصير إلى ذلك.

٢٣- أنه لا يتصور الاضطرار والإكراه في التشريع أبدا، فإما أن يحكم بشرع الله تعالى أو عليه أن يتنحى، فإنما نُصِبَ خليفة لإقامة شرع الله تعالى فإن عجز لزمه الاعتزال، ولا يحق له بحال أن يبدل شرع الله تعالى أو أن يحكم بالطاغوت؛ بدعوى الإبقاء على الملك، إذ ليس من حقه أن يُعْمِلَ الكفر في رقاب العباد والبلاد، إبقاء على سلطانه، ولو قال إنما فعلت ذلك

خوفا من الأعداء. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٥١} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ{٥٢} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ{٥٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{٥٤} إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{٥٥} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{٥٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، وقال تعالى: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، وهل أوقع

هرقل في الورطة العظمى حيث ثبت على كفره إلا أنه ضن بملكه، واعتبر بحال غيره كذلك.

٢٤- أن الفتنة بالتشريع وهو من الشرك الأكبر أعظم من الفتنة بذهاب الحياة والأموال، كما هو صريح القرآن، قال تعالى: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}.

٢٥- أن الاستحلال العملي لا يكون كفرا أكبرا إلا في المكفرات، أما التوسع في تعاطي المحرمات مما هي دون الشرك والكفر والنفاق الأكبر لا يكون كفرا أكبرا وإن سميناها استحلالا عمليا في بعض المقامات.

٢٦- أن القول بأن السلف كانوا يطلقون لفظ الكفر والتكفير للتنفير فقط وهم لا يريدون حقيقة ذلك قول باطل واتهام وإزراء بالسلف، فإن معنى هذا القول أن السلف كانوا يطلقون لفظ الكفر على ما هو ليس بمكفر وهذا من القبائح والعظائم. كما أنه من نسبة السلف إلى القول على الله بغير علم، ورميهم بقلة الروع ، وعدم المصداقية في الأقوال والفتاوى، إلى غير ذلك من اللوازم الفاسدة التي يتضمنها هذا القول الفاسد واللوازم

الفاسدة دليل على فساد القول أو الفعل. إذ لكل قول حق لوازمه الحقة كما أن لكل قول باطل لوازمه الباطلة الدالة على بطلانه وفساده.

٢٧- التفريق بين التكفير وقول الخوارج، وهذا من المقامات التي استعملها المبطلون للتنفير عن حكم شرعي كالتكفير فإن التكفير حكم شرعي كغيره من الأحكام كما في الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ:"أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ". فهذا الخبر دال على إطلاق التكفير ولكن بشرط أن يكون الْمُكَفَّرُ مستحقا لذلك، وقد كفر السلف أفعالا وأقوالا بل وأعيانا كما كفر سعيد بن جبير وطاوس والشعبي وعامة علماء الحجاز الحجاج، وكما كفر الشافعي حفص الفرد وكفر الإمام أحمد بن حنبل المدعو ابن أبي دؤاد إلى غير ذلك كتكفير الأئمة للحلاج وغيره. فالتكفير إذن حكم شرعي لا يجوز التنكر له باعتبار سوء فهم وفساد تعامل الخوارج معه، فإنه لا يجوز التعامل بردود الأفعال في الأحكام الشرعية. كما أنه لا يجوز التجاري مع المبطلين والمفسدين في الأرض في طمس معالم الشريعة والقضاء على الأحكام والألفاظ الشرعية، كالاستمساك والإرهاب والتكفير والجهاد وغير ذلك من المعاني الشرعية

التي الواجب بيانها والتفصيل فيها ونشرها والدعوة إليها لا طمسها والافتئات عليها.

٢٨- التفريق بين إطلاق الحكم على الفعل وتنزيله على الفاعل وهو المعبر عنه بالتفريق بين النوع والعين، فإن المتأمل في كتابات وأقوال كثير ممن نظر في هذه القضية يجد أنه يخلط بين مقام إثبات والوعيد وإنفاذه فتجده متأثرا بذلك أثناء طرحه لهذه المسألة، ونحن نقول إن الواجب على العالم أن يتكلم عن أصل المسألة كحكم شرعي ثم بعد أن يقرر ذلك في إطاره الشرعي الصحيح يعمد إلى النظر إلى إمكانية تنزيل ذلك على المعين بعد إقامة الحجة المعبر عنه بتوفر الشروط وانتفاء الموانع، فيتعين الفصل بين الحديث عن النوع والحديث على العين عند النظر في هذه المسألة. فنفرق بين إثبات كون التشريع والحكم بالطاغوت أنه من الكفر والشرك الأكبر وبين تنزيل هذا الحكم على المشرع والحاكم بالطاغوت.

٢٩- أن الطاغوت إذا قصد به المعنى اللغوي والذي هو تجاوز الحد فهذا يفصل فيه بحسب نوعية هذا التجاوز فربما كان أصغرا وربما كان أكبرا، بحسب سياق المتكلم أو بحسب السياق الذي وردت فيه في كلام الناس. وأما إذا قصد بالطاغوت المعنى الشرعي الوارد في الكتاب والسنة فلم يرد إلا والمقصود به الشرك والكفر والنفاق الأكبر، فلا يرد في الكتاب والسنة

اسم الطاغوت إلا ويراد به الكفر والشرك الأكبر، فلا داعي للتلاعب بالألفاظ بغية التعذير عن الذي ظلموا أنفسهم ولنتذكر قول الله تعالى: {هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً}. وإليك بعض ما ورد في ذلك:({لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً}، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً}، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}، {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} وقد وردت هذه الكلمة في ثمانية مواضع من القرآن كلها بالمعنى المقابل للإيمان، وفي صحيح البخاري معلقا:وقال جابر كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كل حي واحد كهان

ينزل عليهم الشيطان. وقال عمر الجبت السحر والطاغوت الشيطان. وقال عكرمة الجبت بلسان الحبشة شيطان والطاغوت الكاهن. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل واللفظ لمسلم :"فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت.....الحديث". وفي المعجم الكبير للطبراني حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحوطي ثنا أبو اليمان ثنا صفوان بن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافروا إليه فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله عز وجل: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به} إلى قوله: {إن أردنا إلا إحسانا} . قلت: وسنده جيد. وفي مصنف ابن أبي شيبة حدثنا حاتم بن إسماعيل عن جعفر عن أبيه قال:"كان علي بن الحسين يعلم ولده يقول قل آمنت بالله وكفرت بالطاغوت". قلت: وسنده لا بأس به. ولهذا ذهب بعض العلماء إلى تعريفها بالمعنى الشرعي قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة:(الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى). قال

الواحدي(:الطاغوت يكون واحدا وجمعا ويؤنث ويذكر). فالطاغوت شرعا يرد في مقابلة الإيمان.

٣٠- أن الأمة مجمعة على وجوب مقاتلة الفئة الممتنعة عن العمل بشيء من شعائر الإسلام الظاهرة حتى يقام ولكن عند توفر الشوكة القادرة على ذلك، كما فعل الصحابة ﷺ عندما قاتلوا ما نعي الزكاة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى [ج٣- ص٤٧٢]:(نعم يجوز بل يجب بإجماع المسلمين قتال هؤلاء وأمثالهم من كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة مثل الطائفة الممتنعة عن الصلوات الخمس أو عن أداء الزكاة المفروضة إلى الأصناف الثمانية التي سماها الله تعالى في كتابه وعن صيام شهر رمضان أو الذين لا يمتنعون عن سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم **أو لا يتحاكمون بينهم بالشرع الذي بعث الله به رسوله** كما قال أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ﷺ في مانع الزكاة وكما قاتل علي ابن أبي طالب وأصحاب النبي ﷺ الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ :"يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة"، وذلك بقوله تعالى:{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

ويكون الدين لله}، وبقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله} والربا آخر ما حرمه الله ورسوله فكيف بما هو أعظم تحريما ويدعون قبل القتال إلى التزام شرائع الاسلام فإن التزموها استوثق منهم ولم يكتف منهم بمجرد الكلام كما فعل أبو بكر بمن قاتلهم بعد أن أذلهم وقال اختاروا إما الحرب وإما السلم المخزية وقال أنا خليفة رسول الله ﷺ فقالوا هذه حرب الحيلة قد عرفناها فما السلم المخزية قال تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار وننزع منكم الكراع يعني الخيل والسلاح حتى يرى خليفة رسول الله ﷺ والمؤمنون أمرا بعد فهكذا الواجب في مثل هؤلاء إذا أظهروا الطاعة يرسل إليهم من يعلمهم شرائع الإسلام ويقيم بهم الصلوات وما ينتفعون به من شرائع الإسلام وإما بأن يستخدم بعض المطيعين منهم في جند المسلمين ويجعلهم في جماعة المسلمين وإما بأن ينزع منهم السلاح الذي يقاتلون به ويمنعون من ركوب الخيل وإما أنهم يضعونه حتى يستقيموا وإما أن يقتل الممتنع منهم التزام الشريعة وإن لم يستجيبوا لله ولرسوله وجب قتالهم حتى يلتزموا شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة وهذا متفق عليه بين علماء المسلمين. والله أعلم)ا.هـ.

٣١- أن الجهاد لإبراز شريعة الله تعالى وإعلائها وتنزيلها في الواقع ـ إذا لم توجد دولة تقوم بذلك ـ واجب على عموم المسلمين إذا كانت لديهم الشوكة والقدرة على القيام بهذا الواجب المتعين، أما اشتراط أنه لا يقوم بذلك إلا الدول فهذا قول خاطىء لا سيما عندما لا تكون هناك دولة تحكم بشرع الله تعالى أو لا توجد دولة تقاتل لأجل ذلك، وتأمل أن النبي ﷺ لم يشترط الدولة لذلك كما في الصحيحين واللفظ للبخاري من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ قال دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال فيما أخذ علينا:"أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". وفي صحيح مسلم من طريق ابن عم عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم". قالوا قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال:"لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي

من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة". فعلمنا أنهم إذا أتو كفرا بواحا أو امتنعوا عن إظهار شعائر الإسلام وجب على المسلمين قتالهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا بالشوكة الظاهرة.

٣٢- أن معنى الحكم لا يطلق إلا على أحد معنيين إما على بيان توصيف المسألة من جهة الأحكام التكليفية بالنسبة للمسائل الشرعية أو بمعنى فض الخصومات والنزاعات، فلا يجوز إطلاق لفظ الحكم على غير ذلك كفاعل المعصية مثلا إذ ليس أحد من السلف في القرون المفضلة أطلق اسم الحكم أو الحاكم على صاحب المعصية إلا ما كان من بعض الخوارج وبناء على ذلك وقع هؤلاء في تكفير عصاة الموحدين ممن لم تبلغ معصيتهم حد الكفر أو الشرك أو النفاق الكبر. وإليك الأدلة:قال تعالى:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِّ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ}، وقال:{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}، وقال:{ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِّ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}، وقال:{مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، وقال: {يَا دَاوُودُ إِنَّـا جَعَلْنَـاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} وغير ذلك من الآيات، وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:"إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر". وفي سنن أبـى داود حَـدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ - يَعْنِى ابْنَ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ - عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَـدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَـهُ بِأَبِى الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:"إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ". فَقَالَ إِنَّ قَوْمِى إِذَا اخْتَلَفُـوا فِى شَـىْءٍ أَتَـوْنِى فَحَكَمْـتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِىَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :"مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ". قَالَ لِى شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ. قَالَ:"فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ". قُلْتُ شُرَيْحٌ قَالَ:"فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ".إلى غـير ذلـك مـن الأحاديـث الدالـة عـلى هـذا المعنى.

٣٣- أن الاحتجاج بحادثة الرجل الـصالح أصـحمة النجـاشي احتجـاج فاسد من وجوه:

أ- أن هذا كان قبل اكتمال الشرائع التي كانت تتنزل على التدرج والوقائع ولهذا قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}.

ب- أن موت النجاشي كان قبل عام حجة الوداع حيث أن الصحيح أنه توفي سنة سبع بينما نزل قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} عام حجة الوداع بعرفات كما في الصحيحين واللفظ لمسلم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال وأي آية؟ قال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} فقال عمر: "إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم جمعة".

ت- أن النبي ﷺ سماه رجلا صالحا وقال إنه أخ لنا ونعاه إلى أصحابه وصلى عليه ومعاذ الله أن يصفه النبي ﷺ بذلك وهو يحكم بالطاغوت ففي الصحيحين واللفظ للبخاري من طريق عطاء أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: قال النبي ﷺ: "قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلم فصلوا عليه". وفي لفظ مسلم: "مات اليوم عبد لله صالح

أصحمة فقام فأمنا وصلى عليه". وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة قال: نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة اليوم الذي مات فيه فقال:"استغفروا لأخيكم". وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن جابر ﷺ: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي:"مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة". وفي لفظ لمسلم:"إن أخاكم قد مات فقوموا فصلوا عليه قال فقمنا فصفنا صفين". ولا تنطبق هذه الأوصاف على من نحى شرع الله تعالى كلا أو بعضا وحكم بالطاغوت في الناس وحَكَّمَه على رقاب العباد والبلاد بل هو من أبغض الناس إلى الله تعالى كما في صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال:"أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه".

ث- أن النبي ﷺ كان يراسل الملوك والكبراء في زمانه بالإسلام ليدخلوا فيه ويعملوا به لا ليكون رسما لا حقيقة له، ولا يكون ذلك إلا بتطبيق أوامره ﷺ وهو العمل بشريعته ﷺ، ومراسلاته متواترة في الصحيحين وغيرهما، وأذكر من ذلك ما في صحيح مسلم عن أنس:"أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى". وكان من قبل الإسلام منهم يبايعونه على الطاعة في المنشط والمكره كما في

الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبادة بن الصامت قال:"بايعنا رسول الله ﷺ على السمع و الطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم". وفي الصحيحين عن ابن عباس في قصة الكتاب الذي بعثه النبي ﷺ مع دحية الكلبي ﷺ إلى هرقل وفيه :"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين:{ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلى الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}". فكان يدعوهم إلى التوحيد قولا وعملا فهم مخاطبون أصالة بنبذ جميع أنوع الشرك ومنها شرك التشريع الذي هو من أخص خصائص أعمال الجبابرة الذين نصبوا أنفسهم مشرعين لأتباعهم من دون الله تعالى أو مع الله تعالى. فمن أبى منهم جرى عليه أمر الله تعالى كما في صحيح البخاري من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره:"أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلا وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى

كسرى فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق".

ج- أنه لا فلاح ولا رشد ولا استباب للملك ولا شيوع للأمن ولا حصول للخيرات ولا حلول للبركات إلا بإقامة التوحيد واتباع شريعة النبي ﷺ. ونصوص الكتاب والسنة في ذلك متظافرة متكاثرة أشهر من أن تذكر وأظهر من أن تنكر. حتى قال هرقل عظيم لقومه يدعوهم إلى إجابة النبي ﷺ كما في صحيح البخاري:(يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم علي وقال إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل) فظهر أن من الأمور المستقرة في الشريعة الدخول في حكم الله ورسوله ﷺ.

ح- أن أهل العلم ذكروا أن النجاشي اتبع النبي ﷺ في كل شيء وتبعه على ذلك علماء مملكته. قال ابن القيم في زاد المعاد [ج٣- ص٦٠٠]:(وكتب إلى النجاشي:"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك

القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده **وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى**". وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري فقال ابن إسحاق: إن عمرا قال له:يا أصحمة! إن علي القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شئ قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفي ذلك موقع الحز وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر منتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبى الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي ﷺ : **بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته**

الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. والثفروق : علاقة ما بين النواة والقشر)ا.هـ. وقال ابن القيم في زاد المعاد [ج٣-ص٦٠٥]:(فصل:وكتب إلى ملك عمان كتابا وبعثه مع عمرو بن العاص:"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما" وكتب أبي بن كعب وختم الكتاب. قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت:إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك. فقال:أخي المقدم علي بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ثم قال:وما تدعو إليه؟ قلت:أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه

وتشهد أن محمدا عبده ورسوله. قال:يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟. قلت:مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال:فمتى تبعته؟ قلت:قريبا فسألني أين كان إسلامك؟. قلت:عند النجاشي. **وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال:فكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت:أقروه واتبعوه قال:والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت:نعم قال:انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت:ما كذبت وما نستحله في ديننا. ثم قال:ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت:بلى. قال:بأي شئ علمت ذلك؟ قلت:كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال:لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له يناق أخوه:أتدع عبدك لايخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا؟ قال هرقل:رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع**. قال:انظر ما تقول يا عمرو. قلت:والله صدقتك قال عبد:فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟. قلت:يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال:ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو

كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا. قلت:إنه إن أسلم مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم. قال:إن هذا لخلق حسن؟ وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. قال:يا عمرو:وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟. فقلت:نعم فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. قال: فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي. فقال: دعوه فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس فنظرت إليه. فقال: تكلم بحاجتك فدفعت إليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أني رأيت أخاه أرق منه. قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟. فقلت: تبعوه إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف قال:ومن معه؟. قلت:الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال فما أعلم أحدا بقي غيرك في هذه الحرجة وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل

والرجال. قال:دعني يومي هذا وارجع إلي غدا فرجعت إلى أخيه. فقال:يا عمرو! إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته إني لم أصل إليه فأوصلني إليه. فقال:إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هاهنا وإن بلغت خيله ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى. قلت:وأنا خارج غدا. فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه. فقال:ما نحن فيما قد ظهر عليه وكل من أرسل إليه قد أجابه فأصبح فأرسل إلي **فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا النبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لي عونا على من خالفني**).ا.هـ.

خ- أن النجاشي كان من النصارى ومن أخص خصائص شريعة النبي ﷺ ودينه أن يتبع العبد شرائع دين محمد ﷺ ويترك ما عداها، والنجاشي أخص بذلك من غيره، فكيف يقبل النبي ﷺ الإسلام من أقوام بشرط البيعة على الطاعة في المنشط والمكره ويترك رجلا هو أخص بذلك من غيره من جهة كونه رأسا في الناس ويمكنه أن يشرع لهم ومن جهة كونه لم يزل مستمسكا بشرائع الدين النصراني، لاشك أن هذا من أبطل الباطل وأمحل المحال ولا يكون ذلك أبدا في الدين كيف وقد قال تعالى:{ وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة : ٤٨]، وقال سبحانه: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء : ٦٤ ، ٦٥].

د- أننا إن تنزلنا في المقال مع المخالف لقلنا :إن حادثة النجاشي محتملة وآيات وأحاديث التشريع محكمة فوجب ترك المحتمل والعمل بالمحكم.

٣٤- أن قول ابن مسعود ﷺ فيما أخرجه ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال:من السحت قال فقالا:أفي الحكم؟ قال:"ذاك الكفر!" ثم تلا هذه الآية: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، المقصود بالكفر هنا الأكبر ولهذا ذكره ابن جرير تحت الفريق الذي رأى عموم دلالة الآية. والرشوة تطلق ويراد بها جميع أنواع العوض والجعول كما في لسان العرب [ج١٤-ص٣٢٢]:(والرِّشْوَةُ

معروفة الجُعْلُ لسان العرب ..... قال ابن الأَثـير:الرَّشْـوَةُ والرُّشْـوَةُ الوُصْلَةُ إلى الحاجة بالمُصانعة وأَصله من الرِّشاءِ الذي يُتَوَصَّلُ بـه إلى المـاء فالرَّاشي من يُعطي الذي يُعينُه على الباطل والمُرْتَشي الآخذُ والرَّائش الذي يسعى بينهما يَسْتَزيد لهذا ويَسْتَنْقِصُ لهذا....)ا.هـ. ويكون المعنـى هنـا في كلام ابن مسعود ﷺ أن الرشوة دفعت لأجل التشريع وتبـديل الـشرائع، وهو عام في كل ما يجعل في مقابلة التبـديل أو التـشريع فيـدخل في ذلـك الأطماع العامة والخاصة، بدليل مغايرة ابن مسعود ﷺ بـين دفـع الرشـوة محاباة وبين دفعها في الحكم. فتأمل. وقد أخرج البيهقي في السنن الكـبرى ألفاظا مختلفة لأثر ابن مسعود ﷺ في الرشوة (ج١٠- ص ١٣٨) أذكرهـا على سبيل الاختصار:(عن مسروق قال سألت عبد الله يعنى ابن مـسعود عن السحت؟ فقال:الرشا. وسـألته عـن الجـور في الحكـم فقـال:"ذلـك الكفر". وعن مسروق قـال سـئل عبـد الله عـن الـسحت؟ فقـال:"هـي الرشـا". فقـال:في الحكـم؟ فقـال عبـد الله:"ذلـك الكفـر وتـلا هـذه الآية:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}". وعن مـسروق قال: سألت ابن مسعود عن الـسحت أهـو رشـوة في الحكـم؟ قـال:"لا، {ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون} والظالمون والفاسـقون ولكن السحت أن يستعينك رجل على مظلمة فيهدى لـك فتقبلـه فـذلك

السحت". ثم قال :(باب من أعطاها ليدفع بها عن نفسه أو ماله ظلما أو يأخذ بها حقا) وعن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ﷺ أنه لما أتى أرض الحبشة أخذ بشئ فتعلق به فأعطى دينارين حتى خلى سبيله". وعن وهب بن منبه قال:(ليست الرشوة التي يأثم فيها صاحبها بأن يرشو فيدفع عن ماله ودمه إنما الرشوة التي تأثم فيها أن ترشو لتعطى ما ليس لك)ا.هـ. وهذا العموم في معنى الرشوة هو ما أشار إليه ابن جرير الطبري فيما تقدم عندما قال:(هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه)ا.هـ.

٣٥- تنبيه: أن بعض أهل العلم حمل كلام ابن مسعود ﷺ على عمومه فقال بكفر من ترك العمل بالشرع إتباعا لهواه ولكن خالفهم الجمهور في ذلك كما تقدم.

٣٦- تنبيه: إذا وقعت موافقة بين حكم الله تعالى وحكم الطاغوت بمعنى إذا أعمل الطاغوت فكره وشاور شياطينه من إنس وجن فخلصوا إلى أن الأفضل تشريع كذا وحكم كذا في مسألة كذا فوافق ذلك التشريع شرع الله تعالى فلا يجوز أن يقال إنهم عملوا وحكموا بشرع الله تعالى لأن مؤداهم إليه باطل، وأما إذا أخذ من الشريعة أحكاما وضمنها دستوره فلا

يجوز أن يقال في المسائل التي أخذها من شرع الله تعالى أنها حكم الطاغوت ولا يقال للحاكم بها بأعيانها أنه حاكم بالطاغوت لأنها حكم الله تعالى ومؤداهم إليه صحيح، ولكن نقول أن الحاكم طاغوت باعتبار أنه إنما يتشهى ويتخير في التشريع فتارة يأخذ من شرع الله تعالى وتارة يأخذ بشريعة الطاغوت فهو مؤمن ببعض الكتاب كافر ببعض. وعليه فلا حرج من التحاكم إليه فيما يحكم فيه بشرع الله تعالى الذي أخذه من الكتاب والسنة، إذا لم نجد بدا من ذلك؛ لأننا وإن قلنا إن الحاكم طاغوت إلا أننا في هذه الصورة لم نتحاكم إلى شريعته بل إلى شرع الله تعالى، وهذا من الحق الذي يتعين علينا قبوله وإن نطق به الشيطان. إلا أننا متى ما وجدنا مسلما يقضي بيننا بشرع الله تعالى تعين المصير إليه مباشرة.

٣٧- تنبيه: أنه لا يغني عن العبد شيئا أن يأمر بالعمل بالتشريعات الإسلامية في المحاكم على أن تكون خاضعة للدستور العلماني؛ لأن الحكم هنا يكون للطاغوت لا لله تعالى، فشرع الله تعالى بهذا الاعتبار محكوم عليه لا حاكم مقضي عليه لا قاض تابع لا متبوع، والمعنى أنه طالما أن الأحكام الإسلامية متماشية مع الواقع العلماني المحكوم بالمواطنة وكفالة الحريات والديموقراطية فلا حرج، وأما إذا تعارض شيء من هذه الزبالات مع شرع الله تعالى تدخل البرلمان بحكم الدستور ليعطل أو يلغي حكم الله

تعالى، وقل مثل ذلك في قانون الأحوال الشخصية والنظام العام فإن البرلمان يحتفظ بحق النقض أو التعطيل لكل مادة (إسلامية) تتنافي مع روح البرلمان الشركية (الديموقراطية)، وبالتالي فإن السلطة العليا في البلاد هي الدستور لا شريعة رب الأرض والسماوات، فأي كفر ونفاق هذا!!!! لا شك أنه الأكبر، بل هو من التحايل على دين الله تعالى، لمخادعة البسطاء والسذج، ولإرضاء النفس الكليلة وإقناعها أنها تحكم بالشريعة الإسلامية!!! زعموا!!!، حتى إن بعضهم ليضمن دستوره الكفر الأكبر بدعوى أنه يعلم من قناعات شعبه أن الأغلبية الكاسحة ستصوت ضد كل ما يناقض وينافي الإسلام، أو بدعوى أنه على يقين بأن هذه المادة الكفرية لن يعمل بها أصلا، يا سبحان الله من أذن لهؤلاء أن يعرضوا الكفر على العابد ومن أذن لهم أن يقرروا الكفر الأكبر في دساتيرهم والله تعالى يقول: {بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، ويقول: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ

الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون}، ويقول: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، ويقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}، ويقول: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}، ويقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}، ويقول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ

جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، ويقول: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

٣٨- أن الاحتجاج بقصة يوسف عليه السلام مع الملك على جواز الركون إلى الطاغوت ومداخلته لتثبيت ملكه الطاغوتي وإعانته على تشريعاته الجاهلية إنفاذا وإقرار بتولي المناصب القضائية والتشريعية والوزارية التي تحدد سياسات الدولة الطاغوتية هو احتجاج فاسد باطل لأمور:##

أ-أن من أخص خصائص الإسلام الذي هو دين الله في أرضه اجتناب الطاغوت والبراءة منه والتخلي عنه والسعي في إزالته وفضحه وكشف عواره وإبداء العداوة له، كما قال تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [البقرة : ٢٥٦ - ٢٥٧]، وقوله: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ٦٠]، وقوله: { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء : ٧٦]، وقوله: { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة : ٦٠]، وقوله: { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر : ١٧ ، ١٨]، فاجتاب الطاغوت هو دين الأنبياء قاطبة فإن دينهم واحد فلا خلاف بينهم في التوحيد وإنما اختلفوا في الشرائع كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال النبي ﷺ :"الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ". ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين} [النحل : ٣٦]، وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة : ٤].

ب- أن يوسف عليه السلام طلب من ربه أن يخلصه من كيد النسوة حتى لا يصبوا إليهن فيكون من الجاهلين فكيف يقال بأنه رضي أن يداخل الطاغوت وينتسب إليه.

ج- أن شعار يوسف كان دائما طلب الاستبراء للعرض ولهذا أبى أن يخرج ن السجن حتى تظهر براءته فأيهما أعظم الاستبراء للعرض أم الدين؟.

د-أن طريقة يوسف عليه السلام في التعامل مع الطاغوت أن يجتبه ويفارقه لا أن يركن إليه ويناصره ويسعى في إقامة ملكه وتثبيت عرشه قال تعالى: { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [يوسف :٣٧- ٣٨].

هـ- أن يوسف خاطب صاحبيه في السجن بقضية التشريع وأن الحكم لا يكون إلا لله وأن مخالفة ذلك هو من الإشراك بالله تعالى كما قال تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف : ٣٩ ، ٤٠] فأيهما أولى بهذا الخطاب هذان الرجلان اللذان لا حول لهما ولا قوة أم ذلك الملك الذي بيده الحل والعقد؟.

و ـ أن يوسف لم يفرق في خطابه لصاحبية بين أنواع التوحيد بل خاطبهم به كله لأن التوحيد لا يقبل الجزئة والتبعيض.

ز – أن المتأمل في سياق خطاب يوسف عليه السلام مع صاحبية في السجن أنه عنى أصالة شرك التشريع لأن الظاهر أنه الأزمة الحقيقية والورطة الكبرى التي وقع فيها القوم الذين تركهم يوسف عليه السلام أنهم نصوبوا أنفسهم مشرعين للعباد يحكمون فيهم بحكم الجاهلية.

ح – أن يوسف بين أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله تعالى واتبع ملة آبائه فكيف يعاودهم ويكن إليهم بل وفي بلاط ملكهم وهم ما زالوا مقيمين على الطاغوت يحكمونه ويتبعون تشريعاته؟.

ط – أن يوسف لما خاطب صاحبيه كان قد نبىء بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} [يوسف : ٣٧]. فهو إذن يقرر في خطابه لهما ما أمره

ربه به من اعتزال الطاغوت واجتنابه فكيف إذا خرج كاد ليداخل الطاغوت ويركن إليه.

ك – أن رؤيا الملك دالة على أن ملكه مهدد بمجاعة عظيمة طويلة الأمد مؤذنة بدماره فكيف نتصور أن يوسف يدخل معه في ملكه ليثبته له ويمكن له مع كونه طاغوتا مجرما، لاشك أن هذا من الافتراء العظيم على يوسف عليه السلام.

ل – أن يوسف لما سنحت له الفرصة في السجن ليخاطب صاحبيه فيه ورأى ضرورتهم وحاجتهم إليه بادر ببيان التوحيد وحق رب العبيد، فكيف بالملك الذي بلغ من الضرورة ليوسف والحاجة إليه أبعد من ذلك بكثير فبم سيخاطبه أعن الأموال والملك والطعام والشراب أم بحق الله جل جلاله.

م – أن القرآن والسنة دلا على أن كل نبي كان لا يبدأ بشيء قبل حق الله تعالى، وهذا ما فعله يوسف قطعا مع الملك وقد جاء هذا في قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف : ٥٤]، فإنه لا يتردد أحد ممن استبصر وعرف دعوة الأنبياء والمرسلين أن يوسف عليه السلام إنما كلمه قبل كل شيء عن التوحيد الذي هو حق الله تعالى على عباده، وإلا فكيف يتصور عبد

أن يوسف عليه السلام سعى لإقامة دنيا الناس بتولي بيت المال ولم يكلمهم عن حق الله تعالى وهل بعثت الرسل لأجل ذلك؟.

ن – أن الرسل كانوا يخاطبون أقوامهم بالتوحيد حكاما ومحكومين فإن قبلوا وإلا اعتزلزهم فكيف نتصور أن يوسف كلم الملك بالتوحيد وأن الملك أبى وبقي وثبت على كفره ومع ذلك كله داخله يوسف عليه السلام بل وتولى له المنصب الأهم الذي به بقاء ملكه واستقراره لا سيما مع الأزمة الاقتصادية الكبرى القادمة عليه؟. هذا محا ل وباطل بل ما داخله حتى أذعن وانقاد لله رب العالمين كما فعل إخوته من الأنبياء والمرسلين.

س – أن الأنبياء ما كانوا يقبلون أنصاف الحلول في حق الله تعالى واعتبر بقصة سليمان مع بلقيس التي أرادة المصانعة بإرسال الهدية كما قال تعال: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ

بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [النمل : ٢٩ – ٣٨].

ف – أن القول بأن الملك بقي على كفره قول لا دليل عليه مطلقا وليس هو قولا لأحد الصحابة ولا التابعين بل الذي نقل عنهم أن الملك أسلم مع يوسف لله رب العالمين، ومكن الله تعالى ليوسف بذلك أمرا ونهيا بشريعة الله رب العالمين، وهذا هو التفسير الذي يتوافق مع ما قدمناه من دعوة الأنبياء والمرسلين. جاء في تفسير الطبري حدثني المثنى قال ، حدثنا عمرو قال ،أخبرنا هشيم ، عن أبي إسحاق الكوفي ، عن مجاهد قال: أسلم الملك الذي كان معه يوسف. وحكي ذلك أيضا عن وهب بن منبه.

ص – أن معنى قوله تعالى: { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [يوسف : ٧٦]

٣٩- أن معنى التشريع هو السن والإظهار وهذا محل اتفاق بين السلف وهو محل اتفاق بين أهل اللغة ##

٤٠- أنه لا يحق لأحد كائنا من كان أن يُعَذِّر عن الطاغوت ولا أن يدعو إلى مناصرته والتصويت له ودعمه بدعوى أنه أفضل من غيره أو أفضل السيئين، وأن الغالب على حكمه الشرع، وفرص الدعوة متاحة، ولم يمنع

أحدا من بناء المساجد وإقام الصلاة وممارسة سائر الشعائر التعبدية، بل الأمر المتعين الواجب هو القيام بمناصحته أن يقلع عن هذا الشرك الأكبر عملا بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} فإنما الدين النصيحة١، وعلى ذلك كان النبي ﷺ يبايع أصحابه٢، فإن امتنع تعين العمل على إزالته، إن كانت ثمة شوكة من قدرة وإمكانات، مع التضرع إلى المولى تبارك وتعالى باستبداله بحاكم مسلم يحكم بشرع الله تعالى، فإن تعذرت إزالته وجب اعتزاله كما في الصحيحين من طريق بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ الْحَضْرَمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِى فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِى جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ: « نَعَمْ » فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ « نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ قَالَ « قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِى وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِى تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ ». فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ

---

١ - كما في صحيح مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِىِّ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ:"الدِّينُ النَّصِيحَةُ". قُلْنَا لِمَنْ قَالَ:"لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

٢ - كما في الصحيحين عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:"بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ".

الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ «نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ:**«نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».** فإن التوحيد لا يقبل الترقيع وأنصاف الحلول. وإن مداخلة الطاغوت في مثل هذه الأحوال التي يتظاهر فيها بلباس الدين يحدث تلبيسا ولبسا عظيما في الدين. وهو من العمل على سربلة الطاغوت بسربال الإيمان، وهذا من أخبث الأمور وهو من العمل على الجمع بين المتناقضين فإن التوحيد لا يقبل التبعيض ولا المقابلة، فمهما عمل العبد بشرائع الإسلام وهو مرتكب للكفر أو الشرك أو النفاق الأكبر لم ينفعه عمله طرفة عين كما قال تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}، وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين قَالَ النبي ﷺ :« آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ » زاد مسلم:**"وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ"**.

فيا أهل العلم ويا دعاة الإسلام الحذر الحذر من التلبيس والتدليس والترقيع وترقيق مسائل التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ولا تستدلوا بقصة الكريم يوسف عليه السلام فإنه القائل: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، ولا بمؤمن آل فرعون فإنه قد صدع بالحق ووقف في خندقه ودافع عنه حتى أنجاه الله تعالى ولم يكن ظهيرا للمجرمين، كما قال تعالى: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} إلى قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ

وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

فأين هذا ممن الذي يسمح له الطاغوت أن يداخله في عمله ليمرر أجندته وتعليماته وأوامره فما هو إلا آلة لتنفيذ السياسات العليا للطاغوت التي لا تقبل المساس ولا المساومات، فهو محكوم لا حاكم مَقُودٌ لا قائد، وما زاد الأمر إلا شدة وتلبيسا بدخوله في عمل الطاغوت الذي انتفع به أيما انتفاع حيث أضفى على نفسه بذلك الشرعية ولبس على عامة المسلمين دينهم، وهو لا يزال مقيم على تمرير شريعة الطاغوت، يدافع عنها ويدفع.

ولنتذكر جميعا هذه الآيات قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ

الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقوله: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا

نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا}، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا فهل من معتبر.

** فائدة:شرط الاستحلال لا يذكر إلا في الذنوب غير المكفرة، أما المكفرة منها فلا يذكر؛ لكونها غير معوزة أصلا لهذا الشرط؛ إذ هي كفر بذاتها، فإذا انضاف إلى ذلك الاستحلال صار الكفر كفرين. فالعبد قد يجتمع فيه أكثر من نوع من أنواع الكفر.

وإليك بعض المنقولات فيما يتعلق ببيان هذا المقام الخطير الكبير الذي زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام :

** قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية١٣/ ١١٩:((فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين)).

** وقال البيهقي في شعب الإيمان:(وأما ما اتصل منه بالحكم فجملته أن الحاكم لا ينبغي له أن يتبع هواه ولا يتعدى الحق إلى ما سواه، كما قال الله عز وجل لداود عليه السلام:{يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله}، فإن الحاكم ليس رجلا خص من بين الناس، فقيل له:احكم بما شئت، فإن هذا لم يكن لملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنما ائتمن على حكم الله تعالى جده ليفصل بين

عباده، ويحمل المختلفين عليه بكل ما قاله بين الخصمين ما ليس يحكم لله عز وجل، فهو مردود عليه، وهو أسوأ حالا ممن قاله وهو غير حاكم، لأنه ائتمن فخان، وكذب على الله جل ثناؤه، واختيان الأمانة والكذب على الله شقاق، والله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم}. ويقول: {ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة}. قال: وينبغي للإمام أن لا يولي الحكم بين الناس إلا من جمع إلى العلم السكينة والتثبت، وإلى الفهم الصبر والحلم، وكان عدلا أمينا، نزها عن المطاعم الدنية، ورعا عن المطامع الرديئة، شديدا قويا في ذات الله، متيقظا متحفظا من سخط الله، ليس بالنكس الخوار فلا يهاب، ولا المنفطم الجبار، فلا ينتاب، لكن وسطا خيارا، ولا يدع الإمام مع ذلك أن يديم الفحص عن سيرته، والتعرف لحاله وطريقته، ويقابل منه ما يجب تغييره بعاجل التغيير، وما يجب تقريره بأحسن التقرير، ويرزقه من بيت المال – إن لم يجد من يعمل بغير رزق – ما يعلم أنه يكفيه، ويقوي فيما ولاه يده، ويشد أزره، وبسط الكلام فيه إلى أن قال: ويتوقى أن يقال في ولايته: هذا حكم الله، وهذا حكم الديوان، فإن هذا من قائله إشراك بالله، إذ لا حكم إلا لله، قال الله عز وجل: {ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين} كما قال: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين}، وقال: {ولا يشرك في حكمه أحدا} إلى غير ذلك من الآيات التي وردت في معناه).ا.هـ.

** وجاء في كتاب الإحكام لابن حزم (ج ٥ – ص ١٦٢): (قال أبو محمد: وهذا لا حجة لهم فيه لا خلاف بين اثنين من المسلمين أن هذا منسوخ وأن من حكم بحكم الإنجيل مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام فإنه كافر مشرك خارج عن الإسلام).

** وقال ابن كثير في البداية والنهاية في معرض كلامه عن التشريعات

الجاهلية التي تضمنها الياسا الذي وضعه جنكز خان نقلا عن اليهود والنصارى وشيء من دين المسلمين [ج ١٣ - ص ١٣٩] :(وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الانبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الانبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى:{أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون}، وقال تعالى:{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}).

** وفي تفسير ابن كثير [جزء ٢ - صفحة ٢٢٧] :(وقال ابن جريج : قال عمرو بن دينار عن عكرمة أن مشركي قريش كاتبو فارس على الروم وكاتبتهم فارس فكتبت فارس إليهم : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله:{وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون} ونزلت {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} وقال السدي:في تفسير هذه الاية:إن المشركين قالوا للمسلمين:كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى:{وإن أطعتموهم} فأكلتم الميتة {إنكم لمشركون} وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف.

وقوله تعالى:{وإن أطعتموهم إنكم لمشركون} أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله

تعالى:{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} الاية وقد روى الترمذي : في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال:يا رسول الله ما عبدوهم فقال:"بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم").اهـ.

** وفي مجموع الفتاوى لابن تيمية [ج ١١ - ص ٢٦٢] ذكر الفرق بين من يخرج على الشريعة وبين من يخطىء في الأحكام فقال:(كما أن لفظ الشريعة يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذى بعث الله به رسوله فان هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر وبين الشرع الذى هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطىء هذا إذا كان عالما عادلا وإلا ففى السنن عن النبى انه قال القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو فى النار).

** وفي مجموع الفتاوى لابن تيمية [ج ٣٥ - ص ٣٧٢]:(وليس المراد بالشرع اللازم لجميع الخلق حكم الحاكم ولو كان الحاكم أفضل أهل زمانه بل حكم الحاكم العالم العادل يلزم قوما معينين تحاكموا إليه فى قضية معينة لا يلزم جميع الخلق ولا يجب على عالم من علماء المسلمين أن يقلد حاكما لا فى قليل ولا فى كثير إذا كان قد عرف ما أمر الله به ورسوله بل لا يجب على آحاد العامة تقليد الحاكم فى شيء بل له أن يستفتى من يجوز له إستفتاؤه وإن لم يكن حاكما ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا يستحق العقوبة فى الدنيا والآخرة قال تعالى:{آلمص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم

ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} ولو ضرب وحبس و أوذى بأنواع الأذى ليدع ما علمه من شرع الله ورسوله الذى يجب إتباعه واتبع حكم غيره كان مستحقا لعذاب الله بل عليه أن يصبر وإن أوذى فى الله فهذه سنة الله فى الأنبياء وأتباعهم قال الله تعالى:{ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}، وقال تعالى:{ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم}، وقال تعالى:{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب}).

** وفي مجموع الفتاوى لابن تيمية [ج ١١ – ص ٤٠١]:(سئل الشيخ رحمه الله عن قوم داوموا على الرياضة مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا فقالوا لا نبالى الآن ما علمنا وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام ولو تجوهروا لسقطت عنهم وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام فندخل فى حجر التكليف لأنا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة فهل هذا القول كفر من قائله أم يبدع من غير تكفير وهل يصير ذلك عمن فى قلبه خضوع للنبى؟.

فأجاب: لا ريب عند أهل العلم والايمان ان هذا القول من أعظم الكفر وأغلظه وهو شر من قول اليهود والنصارى فان اليهودى والنصرانى آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وأولئك هم الكافرون حقا كما ذكر أنهم يقرون بان لله أمرا ونهيا ووعدا ووعيدا وان ذلك متناول لهم إلى حين الموت هذا ان كانوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة).

** وفي أحكام القرآن للجصاص:(باب طاعة الرسول ﷺ: قال الله تعالى:{أطيعوا الله وأطيعوا الرسول}، وقال تعالى:{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}، وقال تعالى:{ومن يطع الرسول فقد أطاع الله}، وقال تعالى:{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} فأكد جل وعلا بهذه الآيات وجوب طاعة رسول الله ﷺ وأبان أن طاعته إطاعة الله وأفاد بذلك أن معصيته معصية الله وقال الله تعالى:{فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} فأوعد على مخالفة أمر الرسول وجعل مخالف أمر الرسول والممتنع من تسليم ما جاء به والشاك فيه خارجا من الإيمان بقوله تعالى:{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} قيل في الحرج ههنا إنه الشك روي ذلك عن مجاهد وأصل الحرج الضيق وجائز أن يكون المراد التسليم من غير شك في وجوب تسليمه ولا ضيق صدر به بل بانشراح صدر وبصيرة ويقين.

وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسولهﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والإمتناع من التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان).ا.هـ.

** وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان(ج٣/ ص٣٢٨):(وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه

الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم).ا.هـ.

** وفي مجموع الفتاوى [جزء ٢ - صفحة ٢٣٤] :(وقد قال تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}، وقال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا.. الآية}، فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم ملوكهم وزهادهم الأولياء منهم وغير الأولياء فليس لأحد الخروج عن متابعته باطنا وظاهرا ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة في دقيق ولا جليل لا في العلوم ولا الأعمال وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى وأما موسى فلم يكن مبعوثا إلى الخضر.

الثاني: أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة بل الأمور التي فعلها تباح في الشريعة إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك ولو كان مخالفا لشريعته لم يوافقه بحال، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع)ا.هـ.

** وفي مجموع الفتاوى [جزء ٣ - صفحة ٤٢٢] :(ومحمد مبعوث إلى جميع الثقلين إنسهم وجنهم فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله)ا.هـ.

** وفي إعلام الموقعين [جزء ١ - صفحة ٥٠] :(انتفاء الإيمان بانتفاء الرد:ومنها أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ثم أخبرهم

أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا للداعي ورضوا بحكم غيره ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه كما قال تعالى:{فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق أي بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه ويزعم بذلك أنه محسن قاصد الإصلاح والتوفيق والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق وبالله التوفيق).ا.هـ.

** وفي أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن - (ج ٧ / ص ١٥٤):({وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

وقد حكم الله بينهما وأفتى فيما تنازعوا فيه فتوى سماوية قرآنية تتلى في سورة الأنعام .

وذلك أن الشيطان لما أوحى إلى أوليائه فقال لهم في وحيه : سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابوهم أن الله هو الذي قتلها .

فقالوا : الميتة إذاً ذبيحة الله ، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال ، فأنتم إذا أحسن من الله وأحل ذبيحة .

فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالى:{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ} يعني الميتة أي وإن زعم الكفار أن الله ذكاها بيده الكريمة بسكين من ذهب:{وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} والضمير عائد إلى الأكل المفهوم من قوله:{وَلاَ تَأْكُلُواْ} وقوله:{لَفِسْقٌ} أي خروج عن طاعة الله، واتباع لتشريع الشيطان:{وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}. أي بقولهم:ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله، وأحل تذكية، ثم بين الفتوى السماوية من رب العالمين، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالى:{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله)ا.هـ.

** وقال الشيخ الفوزان في كتاب التوحيد:(وقال الشيخ محمد بن إبراهيم:((وأما الذي قيل فيه:إنه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير اللهّ مع اعتقاده أنه عاص وأن حكم اللهّ هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها. أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا

وحكم الشرع أعدل. فهذا كفر ناقل عن الملة.) ففرق رحمه اللهّ بين الحكم الجزئي الذي لا يتكرر وبين الحكم العام الذي هو المرجع في جميع الأحكام أو غالبها، وقرر أن هذا الكفر ناقل عن الملة مطلقا، وذلك لأن من نحى الشريعة الإسلامية، وجعل القانون الوضعي بديلا منها فهذا دليل على أنه يرى أن القانون أحسن وأصلح من الشريعة، وهذا لا شك أنه كفر أكبر يخرج من الملة ويناقض التوحيد).ا.هـ.

** وقال العلامة العثيمين في شرح رياض الصالحين:(ج ١٧/ ص – ١٣- ١٦) بترقيم المكتبة الشاملة:(وقوله عز وجل:{حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} لو قال قائل:كيف يكون تحكيم الرسول ﷺ بعد موته؟ فالجواب أن نقول:يكون تحكيمه بعد موته بتحكيم سنته ﷺ. فالشيء الأول:{لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}. والشيء الثاني:{ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ}، يعني أن الإنسان قد يحكم الكتاب والسنة، ولكن يكون في قلبه حرج، يعني ما يطمئن أو ما يرضى إلا رغماً عنه، فلابد من أن لا يجد الإنسان في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله. الشيء الثالث:{وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} أي ينقادوا انقياداً تاماً، ليس فيه تأخر ولا تقهقر، فهذه شروط ثلاثة لا يتم الإيمان إلا بها. أولاً:تحكيم الرسول ﷺ. والثاني:أن لا يجد الإنسان في نفسه حرجاً مما قضاه الرسول ﷺ. والثالث:أن يسلم تسليماً تاماً بالغاً. وبناءً على هذا نقول:إن الذين يحكمون القوانين الآن، ويتركون وراءهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما هم بمؤمنين؛ ليسوا بمؤمنين، لقول الله تعالى:{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}. ولقوله:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، وهؤلاء المحكمون للقوانين لا يحكمونها في قضية معينة خالفوا فيها الكتاب والسنة، لهوى أو لظلم، ولكنهم استبدلوا الدين بهذا القانون،

وجعلوا هذا القانون يحل محل شريعة الله، وهذا كفر؛ حتى لو صلوا وصاموا وتصدقوا وحجوا، فهم كفار ما داموا عدلوا عن حكم الله ـ وهم يعلمون بحكم الله ـ وإلى هذه القوانين المخالفة لحكم الله. {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}، فلا تستغرب إذا قلنا:إن من استبدل شريعة الله بغيرها من القوانين فإنه يكفر ولو صام وصلى؛ لأن الكفر ببعض الكتاب كفر بالكتاب كله، فالشرع لا يتبعض، إما تؤمن به جميعاً، وإما أن تكفر به جميعاً، وإذا آمنت ببعض وكفرت ببعض، فأنت كافر بالجميع، لأن حالك تقول:إنك لا تؤمن إلا بما لا يخالف هواك. وأما ما خالف هواك فلا تؤمن به. هذا هو الكفر. فأنت بذلك اتبعت الهوى، واتخذت هواك إلهاً من دون الله.

فالحاصل أن المسألة خطيرة جداً، من أخطر ما يكون بالنسبة لحكام المسلمين اليوم، فإنهم قد وضعوا قوانين تخالف الشريعة وهم يعرفون الشريعة، ولكن وضعوها ـ والعياذ بالله ـ تبعاً لأعداء الله من الكفرة الذين سنوا هذه القوانين ومشى الناس عليها، والعجب أنه لقصور علم هؤلاء وضعف دينهم، أنهم يعلمون أن واضع القانون هو فلان بن فلان من الكفار، في عصر قد اختلفت العصور عنه من مئات السنين، ثم هو في مكان يختلف عن مكان الأمة الإسلامية، ثم هو في شعب يختلف عن شعوب الأمة الإسلامية، ومع ذلك يفرضون هذه القوانين على الأمة الإسلامية، ولا يرجعون إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسول الله ﷺ، فأين الإسلام؟ وأين الإيمان؟ وأين التصديق برسالة محمد ﷺ وأنه رسول إلى الناس كافة؟ وأين التصديق بعموم رسالته وأنها عامة في كل شيء؟. كثير من الجهلة يظنون أن الشريعة خاصة بالعبادة التي بينك وبين الله ـ عز وجل

ـ فقط ، أو في الأحوال الشخصية من نكاح وميراث وشبهه ، ولكنهم أخطئوا في هذا الظن، فالشريعة عامة في كل شيء...)ا.هـ.

** فلنعلم جميعا أنه ليس في شرك التشريع خلاف أنه من الكفر الأكبر.

** ولهذا فمن الجهل بأصول التوحيد التفريق بين شرك العبادة كالصلاة والاستغاثة، وشرك الطاعة كالتشريع والطاعة فيه.

** وقال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان:(فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته قال في حكمه:}وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً}، وفي قراءة ابن عامر من السبعة:{ولا تشرك في حكمه أحداً} بصيغة النهي. وقال في الإشراك به في عبادته:{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا}، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله).ا.هـ. فأين الإجماع؟!! الذي ينقله البعض فبالله عليكم : ارحموا عقولنا من هذا الغثاء والهذيان.

** ثم علينا أن نعلم أن الاستحلال يكون بالفعل كما يكون بالاعتقاد والقول: وذلك في المكفرات لا فيما دون ذلك من الذنوب والمعاصي. فلا يكون الاستحلال الفعلي كفرا إلا فيما سماه الشارع كفرا.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين عن ضابط الاستحلال الذي يكفر به العبد فقال:(الاستحلال هو أن يعتقد حلّ ما حرّمه الله أما الاستحلال الفعليّ فينظر:إن كان هذا الاستحلال مما يكفِّر فهو كافر مرتدّ، فمثلاً:لو أنّ الإنسان تعامل بالرِّبا،لا يعتقد أنّه حلال لكنّه يصرُّ عليه، فإنه لا يكفر؛ لأنّه لا يستحلّه، ولكن لو قال:إنَّ الرِّبا حلال ويعني بذلك الرِّبا الذي حرَّمه

الله، فإنه يكفر؛لأنّه مكذِّب لله و رسوله ﷺ، الاستحلال إذن:استحلال فعليّ،واستحلال عقديّ بقلبه،فالاستحلال الفعليّ ينظر فيه للفعل نفسه،هل يكفِّر أم لا؟ و معلوم أن أكل الرِّبا لا يكفر به الإنسان، لكنّه من كبائر الذُّنوب، أما لو سجد لصنم فهذا يكفر لماذا؟ لأن الفعل يكفِّر؛ هذا هو الضابط لكن لابد من شرط آخر وهو ألا يكون هذا المستحلُّ معذوراً بجهله،فإن كان معذوراً بجهله فإنه لا يكفر).ا.هـ. لقاء الباب المفتوح سؤال رقم(١٢٠٠).

** وهذا نقل نفيس من كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:السؤال(٣٠):فضيلة الشيخ، ما هي صفة الحكم بغير ما أنزل الله؟.

الجواب:الحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين: القسم الأول:أن يبطل حكم الله ليحل محله حكم آخر طاغوتي، بحيث يلغي الحكم بالشريعة بين الناس، ويجعل بدله حكم آخر من وضع البشر، كالذين ينحون الأحكام الشرعية في المعاملة بين الناس، ويحلون محلها القوانين الوضعية، فهذا لا شك أنه استبدال بشريعة الله سبحانه وتعالى غيرها، وهو كفر مخرج عن الملة، لأن هذا جعل نفسه بمنزلة الخالق ، حيث شرع لعباد الله ما لم يأذن به الله، بل ما خالف حكم الله عز وجل، وجعله هو الحكم الفاصل بين الخلق، وقد سمى الله تعالى ذلك شركاً في قوله تعالى:(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ). القسم الثاني: أن تبقى أحكام الله عز جل على ما هي عليه، وتكون السلطة لها، ويكون الحكم منوطاً بها، ولكن يأتي حاكم من الحكام فيحكم بغير ما تقتضيه هذه الأحكام، يحكم بغير ما أنزل الله، فهذا له ثلاث حالات:الحال الأولى: أن يحكم بما يخالف شريعة الله معتقداً أن ذلك أفضل من حكم الله وأنفع لعباد الله، أو معتقداً أنه مماثل لحكم الله عز وجل، أو يعتقد أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله،

فهذا كفر، يخرج به الحاكم من الملة، لأنه لم يرض بحكم الله عز وجل، ولم يجعل الله حكماً بين عباده. الحال الثانية: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أن حكم الله تعالى هو الأفضل والأنفع لعباده، لكنه خرج عنه، وهو يشعر بأنه عاص لله عز وجل إنما يريد الجور والظلم للمحكوم عليه، لما بينه وبينه من عداوة، فهو يحكم بغير ما أنزل الله لا كراهة لحكم الله ولا استبدلاً به، ولا اعتقاداً بأنه- أي الحكم الذي حكم به- أفضل من حكم الله أو مساو له، أو أنه يجوز الحكم به، لكن من أجل الإضرار بالمحكوم عليه حكم بغير ما أنزل الله، ففي هذه الحال لا نقول:إن هذا الحاكم كافر، بل نقول:إنه ظالم معتد جائر. الحال الثالثة:أن يحكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن حكم الله تعالى هو الأفضل والأنفع لعباد الله، وأنه بحكمه هذا عاص لله عز وجل، لكنه حكم لهوى في نفسه، لمصلحة تعود له أو للمحكوم له، فهذا فسق وخروج عن طاعة الله عز وجل، وعلى هذه الأحوال الثلاث يتنزل قول الله تعالى في ثلاث آيات:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}،وهذا ينزل على الحال الأولى، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ينزل على الحال الثانية، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ينزل على الحال الثالثة. وهذه المسألة من أخطر ما يكون في عصرنا هذا.....).ا.هـ. من كتاب فقه العبادات:(ص٥٦-٥٧).

** وفي مجموع الفتاوى:[ج٢٨-ص٥٢٤] قال:(ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوغ إتباع غير دين الإسلام أو إتباع شريعة غير شريعة محمد فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب)ا.هـ.

** وقال ابن جرير تهذيب الآثار٢/ ١٤٨ عند شرحه لحديث البراء بن عازب ﷺ:مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول

الله ﷺ قال فسألته، قال:(بعثني رسول الله ﷺ أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة. يقول ابن جرير:(فكان فعله من أدل الدليل على تكذيبه رسول الله ﷺ فيما أتاه عن الله تعالى ذكره، وجحوده آية محكمة في تنزيله....) فتأمل – رحمك الله – نص الحديث وما قرره ابن جرير- وهو ما قرره الطحاوي[انظر شرح معاني الآثار٣/ ١٤٩] – عندما بينا أن الجحود أو الاستحلال قد يظهر في عمل من الأعمال. وقال شيخ الإسلام في:[الصارم المسلول ٥٢١،٥٢٢]:(والاستحلال هو اعتقاد أن الله لم يحرمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها،.... وتارة يعلم أن الله حرمها، ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله، ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم، ويعاند المحرم، فهذا أشد كفرا ممن قبله).

** قال ابن كثير في تفسير هذه الآية بعد ذكر سبب النزول:((والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة. وتحاكموا إلى سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا ولهذا قال:{يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت})).

** قَال ابن كثير في تفسير هذه الآية:((ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله الْمحكم المشتمل على كُل خير الناهي عن كُل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهلات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى:من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من

مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير).

** قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى [ج١١ - ص٢٦٥]:(وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك فهذا من نوع التبديل فيجب الفرق بين الشرع المنزل والشرع المؤل والشرع المبدل كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده).

**وقال في مجموع الفتاوى [ج١١- ص٤٣١]:(وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكذوبة والتفاسير المقلوبة والبدع المضلة التي أدخلت في الشرع وليست منه والحكم بغير ما أنزل الله فهذا ونحوه لا يحل لأحد إتباعه).

**وقال في مجموع الفتاوى[ج ٣٥ - ص ٣٦٥]:(فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ فليس هو على دين الإسلام ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ومن بدل شرع الأنبياء وابتدع شرعا فشرعه باطل لا يجوز اتباعه كما قال:{أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ . والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد ﷺ خاتم الرسل ؛ فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ما شرعه من الدين وهو ما أتى به من الكتاب والسنة فما جاء به الكتاب والسنة وهو الشرع الذي يجب على جميع الخلق اتباعه ؛ - وليس لأحد الخروج عنه وهو الشرع الذي يقاتل عليه المجاهدون وهو الكتاب والسنة . وسيوف المسلمين تنصر هذا الشرع وهو

الكتاب والسنة كما قال جابر بن عبد الله :"أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا - يعني السيف - من خرج عن هذا. يعني المصحف" قال تعالى :{لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز} فبين سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط وأنزل الحديد. فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد. فالكتاب والعدل متلازمان والكتاب هو المبين للشرع ؛ فالشرع هو العدل والعدل هو الشرع ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع ولكن كثيرا من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع؛ بل يقولون ذلك إما جهلا وإما غلطا وإما عمدا وافتراء وهذا هو الشرع المبدل الذي يستحق أصحابه العقوبة ؛ ليس هو الشرع المنزل الذي جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل قال تعالى:{وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} وقال تعالى:{وأن احكم بينهم بما أنزل الله} فالذي أنزل الله هو القسط والقسط هو الذي أنزل الله وقال تعالى:{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} وقال تعالى:{إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} فالذي أراه الله في كتابه هو العدل .

** وقال في مجموع الفتاوى [ج ٣٥ - ص٣٩٦]:(و"الثالث" الشرع المبدل مثل ما يثبت من شهادات الزور أو يحكم فيه بالجهل والظلم بغير العدل والحق حكما بغير ما أنزل الله أو يؤمر فيه بإقرار باطل لإضاعة حق : مثل أمر المريض أن يقر لوارث بما ليس بحق ليبطل به حق بقية الورثة فإن الأمر بذلك والشهادة عليه محرمة وإن كان الحاكم الذي لم يعرف باطن

الأمر إذا حكم بما ظهر له من الحق لم يأثم فقد قال سيد الحكام ﷺ في الحديث المتفق عليه:"إنكم تختصمون إلي؛ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار").

** وقال في (النبوات) [ج١ – ص ٦٨]:(ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الدين وتحريف الكلم عن مواضعه ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه والبخاري في أول كتاب خلق أفعال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم. والتبديل نوعان: أحدهما: ان يناقضوا خبره. والثاني: أن يناقضوا أمره)ا.هـ.

** **فاحذروا من فتنة الإرجاء**، فإنها فتنة تسري سريان النار في الهشيم، والإرجاء دين يحبه الملوك، كما سئل الإمام أحمد عن الإرجاء؟. فقال:دين يحبه الملوك، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[ج٧–ص٣٩٤] في معرض كلامه عن خطر الإرجاء والتعامل بردود الأفعال:(ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا من بدع العقائد فإن كثيرا من النزاع فيها لفظي لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم وإلى ظهور الفسق فصار ذلك الخطأ اليسير فى اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال فلهذا عظم القول فى ذم الإرجاء حتى قال إبراهيم النخعي:لفتنتهم ـ يعنى المرجئة ـ أخوف على

هذه الأمة من فتنة الأزارقة. وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء. وقال الأوزاعي: كان يحيي بن أبي كثير وقتادة يقولان ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء. وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال:هم أخبث قوم حسبك بالرافضة خبثا ولكن المرجئة يكذبون على الله. وقال سفيان الثوري: تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري. وقال قتادة: إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث)ا.هـ.

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخاتمة

معاشر المسلمين والمسلمات!

إن الليل لابد أن يعقبه النهار، وإن مع العسر يسرًا، وإن الجولة القادمة هي جولة الإسلام الممكنة في الأرض بإذن الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۞ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾الأنبياء[١٠٥ ـ ١٠٦]

ولكن لابد لهذا الدين من رجال صادقين، ونساء صادقات؛ يحملون هَمَّ هذا الدين العظيم، ويرفعون شعاراته، ويطبقون تعاليمه على عز وشرف لا على استحياء وخجل وخوف وضعف وخور، ولكن هذا لن يتحقق حتى نصدق الله تعالى فيما عاهدناه عليه من الصدق واليقين والإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ ورفع الرأس شامخًا بذلك والعمل بجد لنصرة هذا الدين. وما أحسن ما قال الشاعر:

الفجر الباسم قادم ... من قلب الليل الجاثم

وربيع الأمـــــــة آت ... مـــن بعد شتاء قـــاتـــم
بشباب صلوا الفـــجـــــر ... برجـــال باعوا الـعـمـــرا
بـشـيـوخ كانوا شـــعـــلا ... بالليل تـــشـــع الـفـكـــرا
بـبـنـــات طبـن صـــفـــاء ... عطرا طـهـــــرا وحـيـــاء
بنـســاء عـــشن حـيـــــاة ... لله وكـــــن ضـيـــــاء
بصـــغـــار عـرفـــوا الله ... بالفطـــرة لا بسواهـــــــا
وهم الـبـشرى للدنـيـــــا ... وغدًا يمحون أساهـــــــا
بكتاب ظـــــل دلـيـــــلا ... للأمة جيـلا جـيـــــــلا
مـــن حيرتها يهديهـــــــا ... ويعيد المجد أصـيـــــــلا

فالله الله في بذل الجهد وإفراغ الوسع؛ لنصرة دين الله ـ تبارك وتعالى ـ وأبشروا وأملوا كل خير؛ فإن إرهاصات النصر قد لاحت في الأفق القريب بإذن الله العزيز الحميد، فاعملوا ﴿**فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمؤْمِنُونَ**﴾ التوبة [١٠٥].

تَهُون الحـيـاةُ وكـــلٌّ يَـهُـــون ... ولكنَّ إسْـلامَـنـــا لا يَهُـــون

فاللهم يا عزيز يا حميد يا جبار السموات والأرض! عليك بأعداء دينك أجمعين!

اللهم أنزل بهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين! وأرنا بهم ما تقر به عيون عبادك الموحدين! واجعلنا اللهم من أنصار دينك القويم وصراطك المستقيم! وقر عيوننا أجمعين بنصر مؤزرٍ للإسلام والمسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين!

واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولأزواجنا وأبنائنا وإخواننا ومشائخنا وأحبابنا برحمتك يا أرحم الراحمين ويا خير الغافرين!
آمين.

هذا وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا وإياكم حسن المتابعة، والإخلاص في الأقوال، والأعمال إنه ولي ذلك والقادر عليه. وأن يجعل ما وفقنا إليه من العلم النافع والعمل الصالح في موازين حسناتنا يوم أن نلقاه ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩]".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم الفراغ منه بحمد الله وتوفيقه وإعانته في السابع عشر من شهر شوال لعام ألف وأربعمائة واثنين وعشرين للهجرة النبوية المباركة على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم

وكتبه

أبو عبد الله صادق بن عبد الله

البريد الإلكتروني asa٢٦٦٣@hotmail.com

و الله ولي التوفيق

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	٣
أولاً: حقيقة التواضع.....	٥
ثانيًا: الحياء.....	١١
ثالثًا: الثقة بالنفس أو الآخرين.....	١٤
رابعًا: الحرية.....	٢٠
خامسًا: الضغط يولد الانفجار.....	٢٦
سادسًا: الرأي الآخر.....	٣٤
سابعًا: مفهوم كلمة السنة.....	٤٠
ثامنًا: محبة الله تعالى.....	٤٧
تاسعًا: مفهوم الولاية.....	٤٩
عاشرًا: الإيمان بالله.....	٦٥
الحادي عشر: معنى الشهادتين.....	٦٨
الثاني عشر: العدل والمساواة.....	٧٣
الثالث عشر: إكرام الضيف.....	٧٨
الرابع عشر: الحجاب الشرعي.....	٨١
الخامس عشر: المنهج في الدعوة إلى الله.....	٨٧
السادس عشر: الرفق.....	١٠٠

السابع عشر: مقياس العلم «العالم والعابد»..... ١٠٣
الثامن عشر: الغلو والتشدد والتطرف والإرهاب.... ١٠٦
التاسع عشر: العادات والتقاليد..... ١١٢
العشرون: مفهوم المفاضلة بين العباد والأولاد..... ١١٤
الحادي والعشرون: الاغترار بالطاعة لفعل المعصية.. ١١٩
الثاني والعشرون: مفهوم الشهادة في سبيل الله..... ١٢٢
الثالث والعشرون: المعنى الحقيقي للأدب..... ١٢٥
الرابع والعشرون: الفرق بين الجهل والأمية..... ١٣٥
الخامس والعشرون: معيار الذكاء والغباء..... ١٣٩
السادس والعشرون: فقه التيسير والمنهجية في الاستدلال. ١٤٧
السابع والعشرون: ١٥٢
الثامن والعشرون: ١٥٥
الخاتمة.....
الفهرست.....

تنفيذ طباعي: القسطاوي جوال: ٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

قائمة كتب المؤلف

صدر للمؤلف :

١ ـ التوسل المشروع وما يضاده .
٢ ـ الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية .
٣ ـ الدُّرَرُ والزُّهُور من حديث جبريل المشهور (أكثر من ٤٠٠ فائدة) .
٤ ـ المحبة الحقيقية للأزواج والذرية .
٥ ـ الداء العضال .
٦ ـ القول المبين في أخطاء بعض الحجاج والمعتمرين .
٧ ـ يا أمة الإسلام الاستعلاء بالإيمان .
٨ ـ رسائل رمضان إلى أمة القرآن .
٩ ـ الإنسان والأمانة الكبرى .
١٠ ـ المفاهيم والحقائق الغائبة .
١١ - أجهزة الدمار الشامل.
١٢ - الهوى سر الهوان.

كتب ستصدر قريبا إن شاء الله تعالى :

١-الحقوق العَلِيَّة لخير البرية ﷺ .
٢-الإجماعات السنية لشيخ الإسلام ابن تيمية .
٣-إسعاف السَّؤُول في شرح ثلاثة الأصول.
٤-الطائفة البرهانية في ميزان الإسلام .
٥-الأمراض الشائعة .
٦-القول الثمين في أخطاء المصلين والأئمة والمؤذنين .
٧-الكيفيات المتعددات لصفات الوضوء والتيمم وغسل الجنابة والصلاة.
٨-فساد التَّصوُّر.
٩- المخرج من الفتن .

كتب تحت الإعداد :

١-تفسير جزئي عَمَّ وتبارك .
٢-شرح العقيدة الواسطية .
٣-شرح علل النسائي .
٤-ما ضَعُفَ من الأحاديث والآثار في سيرة النبي المختار ﷺ.
٥-الكلمات الرَّضِيَّة في الخطب المِنبَرِيَّة .
٦-ما خالف الدليل من أخبار بني إسرائيل .
٧-الصراط المستقيم.
٨-الطريق إلى السعادة.
٩-إنهم فتية آمنوا بربهم.
١٠-موزع الحسنات.

قال ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة - (٢ / ٢) :(فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها إلا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا

يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة وأما أهل البدو كلهم وأهل الكفور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب وهم أصح أبدانا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل أعمارهم متقاربة وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى أن كثيرا من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحي المحض والحاجة إلى التنفس فضلا عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبدان وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه

وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم).ا.هـ.